

الجزء الأول

علم التاريخ

نشأته - وتطوره - ووضعه بين العلوم الأخرى

obeikandi.com

مباحث هذا الجزء

الفصل الأول:

علم التاريخ - نشأته وتطوره.

الفصل الثاني:

التاريخ عند العرب.

الفصل الثالث:

التاريخ بين العلوم الأخرى.

الفصل الرابع:

العلوم الأخرى الوثيقة الصلة بعلم التاريخ.

الفصل الخامس:

الصفات الواجب توفرها فى المؤرخ



الفصل الأول

علم التاريخ نشأته، وتطوره

مباحث هذا الفصل:

- لفظ تاريخ ومدلوله.
- أسفار العهد القديم والتوراه وأهميتها فى أخبار الخليقة الأولى.
- الأسطورة، والحكاية الشفهية كبداية طبيعية لتناول الانسان لأخبار أبنائه وأجداده.
- الدين وأثره على الرواية التاريخية.
- محاولات تدوين الأحداث فى مصر القديمة، وعند الأشوريين والبابليين.
- التاريخ عند الأغريق والرومان.
- خضوع التاريخ للاهوت.
- تطور التاريخ فى أواخر العصور الوسطى.
- ظهور روح النقد فى عصر النهضة.
- حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا وأثرها على التاريخ.
- فكرة القومية وأثرها فى الإهتمام بالمصادر المحلية.
- التوسع الإستعمارى الأوروبى وأثره على التاريخ.

- التغيير الاجتماعى، والسياسى فى أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وأثره على التاريخ.

- القرن الثامن عشر - ومؤرخو الثورة فى فرنسا، وفى باقى أوربا.

- المؤرخون الألمان رواد مدرسة النقد والتحليل.

- القرن التاسع عشر، والاهتمام بجمع المصادر التاريخية ونشرها.



التاريخ. هو تعريف بالوقت، وقد اختلف العلماء فى أصل لفظ «تاريخ» فذهب البعض إلى أنه لفظ عربى خالص، وذهب آخرون إلى أنه لفظ فارسى، وأن العرب أخذوه عن الفرس. والتاريخ على العموم يعنى (التوقيت) أى تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها^(١).

وقد أشار السخاوى لذلك فذكر «أن التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها، وموضوعه الإنسان، والزمان»^(٢).

وقد مرت الكتابة التاريخية فى أطوار متعددة.

ففى وقت كان التاريخ مجرد سرد للأحداث، أو تدوينها كما هى دون نقد أو تمحيص أو محاولة للتثبت من صحتها.

وأول صورة دون بها التاريخ كانت فى صورة قصصية.

وأهل أقدم التواريخ المدونة هى ما جاء فى أسفار (التوراة والعهد القديم)، حيث ذكرت الأخبار الأولى عن الأحداث التى مرت بالخليقة منذ نشأتها الأولى، (كقصة خلق الانسان، وقاين، وهابيل، والطوفان ..).

وتدل عناوين أسفار العهد القديم على الأحداث والأخبار التى تناولها كل سفر - فمثلاً سفر الملوك الأول والثانى تناول أخبار ملوك إسرائيل ويهوذا، وسفر الخروج يتناول على الخصوص خروج بنى إسرائيل من مصر، والمزامير تتعلق بمزامير داود النبى^(٣).

وهكذا تمدنا الكتب انسماوية بالمعلومات التاريخية الأولى عن حياة الإنسان، وعن علاقاته بالكائنات الأخرى، بل وعن علاقات الانسان بأخيه

(١) انظر لسان العرب - مادة (أرخ)

- وكذلك نصار، حسين: نشأة التدوين التاريخى عند العرب ص ٣

(٢) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن دم التاريخ ص ٧

(٣) أسفار العهد القديم ٢٩ سفرأ

الانسان منذ أن بدأت تتكاثر الخليقة على الأرض.. باعتبار أن الأرض هي المسرح، وأن التاريخ هو التمثيلية التي تدور فصولها على هذا المسرح عبر العصور بحيث يمكن أن نقول أن التاريخ موضوعه الانسان والزمان^(١).

وقد بدأ إهتمام الانسان بالتاريخ منذ فجر الخليقة.

فقد لعبت الاساطير (Legends) والحكايات (anecdotes) دوراً هاماً في حياته، وكانت، هذه بداية طبيعية للتاريخ. إذ يحكى الإنسان لابنائه وأحفاده أخبار الأجداد والسلف. وبالطبع إمتزجت في هذه القصص الحقيقية بالخيال، وبدأ بدأ الإنسان يهتم بأخبار أسلافه السابقين.

وقبل أن يعرف الانسان الكتابة عبر عن هذه الأفكار التي جالت بذهنه بالرسم والنقش على الحجر مستخدماً في ذلك ما أمكنه إستخدامه من الآلات وأدوات ومواد، ومن ثم ترك لنا الإنسان الأول على جدران الكهوف، وفي المغارات وغيرها من الأماكن التي سكنها ما يمكن أن نستدل به عن بعض أفكاره، وعن نظام حياته ومعتقداته.

ومع تقدم الإنسان تطورت حياته، كما تقدمت وسائل التعبير عن أفكاره ومعتقداته، وأسلوب حياته حتى عرف الكتابة، فكانت هذه طفرة عظيمة في مجال تسجيل الأحداث، والأفكار والمعتقدات.

ولعب الدين دوراً هاماً في تكييف حياة الانسان وتصرفاته، فعلاقته

(١) عكف عدد من المؤرخين والفلاسفة - الألمان بالأذات على دراسة اثر القصص الديني في الكتابة التاريخية، وقد تباينت آراؤهم حول هذه العلاقة بين الاساطير الدينية وبين التاريخ كعلم نذكر منهم على سبيل المثال:

شلينج (Schelling) - الذي كتب «مقدمة في فلسفة الاساطير».

كاسيرر (Cassirer) - الذي كتب في «التفكير الاسطوري».

د. شترواس (Dr. Strauss) - الذي كتب في حياة يسوع المسيح بحث، نقدي.

أزيد من التفصيل أنظر.

كاسيرر، ارست. في المعرفة التاريخية ص ١٠٨ وما بعدها

بخالفه، ونظرته للقوة العليا الخفية التي تُدير الكون، ورهبته من الأشباح والأرواح غير المرئية، والخوف من الموت، ومحاولاته للحفاظ على حياته، وما خلقه هذا من تصورات وخيالات فى عقله - كل هذا كان له أثره فى سلوك الإنسان، وفى معاملاته وعبر عن ذلك بمختلف وسائل التعبير المتاحة له.

وهكذا يمكن أن نقول إن اهتمام الاسنان بمعرفة ماضيه، وأخبار أسلافه يرجع إلى أقدم العصور.

وحرص الإنسان - كما ذكرنا - على أن يلم أبناءه وأحفاده بأخبار أسلافهم، وكطبيعة البشر لم تخل هذه الأخبار من الإضافات والتحريف مما يضى على هؤلاء الأسلاف ثوباً من البطولات والتمجيد.

وإعل الغرض الأساسى الذى من أجله حرص الناس على أن يتناقلوا قصص الأحداث التى حدثت فى الأزمنة القديمة هو - إلى حد كبير - نفس الغرض الذى نهدف إليه اليوم من دراسة التاريخ .. الأ وهو اتخاذ العظة من الماضى، وتوضيح الحاضر، والنظر للمستقبل فى ضوء هذا الماضى بعظاته وعبره.

ومن أقدم المحاولات لتدوين التاريخ تلك التى قام بها الكاهن المصرى القديم مانيثون (Manetho) الذى عاصر بطليموس الأول، وبطليموس الثانى، ووضع تاريخاً لقدماء المصريين استمد مادته من مصادر مصرية قديمة، وكان ذلك على نظام (الحواليات) أى تدوين الحوادث وترتيبها تايخياً عاماً بعد عام، وللأسف فقد مؤلف مانيثون هذا فلم تبق منه إلا نبذ قليلة.

كذلك محاولة كاهن آخر بابلى عاش حوالى ٢٥٠ ق م هو بيروسوس (Berossus) كتابة تاريخ بابل باليونانية مستنداً على مصادر بابلية قديمة، وقد ضاع مؤلفه أيضاً ولم تصلنا منه إلا نبذ بسيطة متضمنة فى بعض الكتب الأخرى التى أخذت عنه (١).

(١) هرندشو: علم التاريخ (ترجمة عبد الحميد العبادى) ص ١٦.

وحذا بعض الأشوريين، والعبرانيين، حذو المصريين والبابليين فى هذا المجال فكتبوا عن تاريخ آشور وبابل.

أما عن الإغريق وتاريخهم - فلدينا العديد من الأسماء اللامعة التى تعرضت للكتابة عن أصلهم، وعن النزاع بينهم وبين الفرس، والنزاع بين المدن الإغريقية المختلفة كحرب البلوبونيز بين أثينا واسبرطة وغيرها من الحروب.

لقد شغف الإغريق بالبحث أو بما يسمونه باليونانية (Istoria) أى تاريخاً حتى بزوا غيرهم فى هذا الميدان. فكتب هكتيوس (Hecateus) فى القرن السادس ق. م عن أصل الشعب الإغريقى، كما كتب هيرودوت (Herodotus) الذى لُقّب بأبى التاريخ فى القرن الخامس ق. م عن النزاع بين الإغريق والفرس، وبعده كتب ثوكوديديس (Thucydides) عن حرب البلوبونيز بين أثينا واسبرطة.

وتميزت كتابات هؤلاء المؤرخين الأغريق بالبعد إلى حد كبير عن الخرافات والأساطير، وبمحاولة الوصول إلى تفسير منطقى للأحداث^(١).

ومن أبرز كتابات الأغريق الألياذة، والأوديسة التى نُسبت إلى هوميروس^(٢).

ومن الذين أرخوا للرومان، ومدنهم، وفتوحهم بوليبيوس (Polybius) الأغريقى فقد عاش فى روما فى القرن الثانى ق. م، وكتب عن المدينة الرومانية وما وصلت إليه من قوة، وتحدث عن فتوح الرومان، ونظامهم السياسى^(٣).

(١) Collingwood: The Idea of History, Pp. 17 and 28-31

- كذلك هونشو: مرجع سابق ص ١٧ وما بعدها

(٢) انظر ج. ح. كراونز: صلة العام بالمجتمع (ترجمة حسن خطاب)، وقد نفى ولف، (١.٨) Wolf) الألماني فى عام ١٧٩٥ ما هو شائع من أن الألياذة والأوديسة كتبها هوميروس وذهب إلى أنها من عمل جماعة من الشعراء فى فترات زمنية متباعدة - وستعرض لذلك فيما بعد.

(٣) Collingwood: Op. Cit., Pp. 33-36

وقد ظل تاريخ الرومان تتناوله أقلام مؤرخى الأغريق باليونانية لفترة طويلة.

لكن كتب يوليوس قيصر (Julius Caesar) فى عام ١ ق م كتابه المشهور عن الحرب الغالية (The Gallic War) تناول وقائع هذه الحرب التى انتهت بضم بلاد الغال إلى الدولة الرومانية، كذلك له كتاب اخر عن الحرب الأهلية التى انتصر فيها على بومبى.

ثم تاتى كتابات ليفى (Livy) وتاسيت (Tacitus). فقد كتب الأول تاريخا كاملا لروما تحدث فيه عن فتوحاتها وتغنى بمفاخر الجمهورية الرومانية، وجمع كل المتواتر عن تاريخ روما ونسقه فى دراسة متكاملة لتاريخ الجمهورية الرومانية. وتستحق مقدمة كتابه هذا الدراسة والتأمل فقد اوضح فيها الهدف من كتابه، وذكر أنه رجع بالرومان لتاريخهم القديم ليوضح لهم كيف ان عظمة روما ترجع للأزمة الأولى التى كان فيها المجتمع الرومانى يتسم بالبساطة والوضوح^(١).

أما تاسيت فقد كان يهدف فى كتاباته إلى الإصلاح الإجتماعى أكثر من تناول التاريخ للتاريخ ذاته. فقد حرص فى (حولياته) على أن يُعطى صورة لما وصل إليه المجتمع الرومانى من تدهور خلقى. وقارن بين ذلك وبين المزايا التى يتحلّى بها البرابرة الذين كانوا حديثى عهد بالاتصال بالإمبراطورية الرومانية.

ولما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية فى عهد الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) تأثر التاريخ والكتابة التاريخية بهذا الحدث الهام، فقد تحول التاريخ إلى أيدى القساوسة والرهبان، وصار التاريخ خاضعاً للاهوت مُسخرأ له، وتركز فى الحوليات التى لاتخرج عن تقييد للحوادث وربطها بأعياد الفصح وغيره من الأعياد المسيحية.

لكن حين ضعفت الإمبراطورية الرومانية وإندثرت معالم الحضارة الأوربية - احتفظت الأديرة والكنائس بقبس من النور، كما أن الإهتمام بتاريخ الكنيسة، والأحداث المرتبطة به أدى إلى نظرة جديدة للتاريخ، فقد اعتبروه سجلاً حافظاً للعلاقة بين الإنسان وخالفه.

لقد تغيرت النظرة التاريخ بتحكم رجال الدين فيه. فنظروا للأحداث لا على أنها نتيجة تصرف، الإنسان وسلوكه لكن على أنها إرادة الله ومشيئته التي تسيّر الكون. فظهور روما وعظمتها - مثلاً - لا يرجع لجهود الرومان أنفسهم لكن لمشيئة الخالق، وحين تنتهي الحكمة الالهية من وجودها تضحمل وتزول

وفي أواخر العصور الوسطى حدث تطور يذكر فبدأ الكتاب يدقون فيما يذكرون من حوادث، ويرجعون في الحوادث المعاصرة لأقوال من اشترك فيها أو شاهدها.

ففي فرنسا ظهر تاريخ نانت (Chronicle of Nantes) تناول أحداثاً تمتد حتى عام ١٠٤٩م، وفي ألمانيا ظهر التاريخ الانجلو سكسوني (Anglo-Saxon Chronicle) تناول الأحداث حتى عام ١١٥٤، وفي انجلترا ظهر التاريخ الأكبر لماثيو باريس (Mathew of Paris) وهو راهب انجليزى اعتنى بتسجيل ماوصل إليه من أخبار العالم المتمدن في الغرب، والشرق حتى عام ١٢٥٥(١).

وفي القرن الرابع عشر ظهرت بعض الكتب التاريخية التي تميزت بتحكيم العقل ورفض الأساطير التي تتنافى مع المنطق، يظهر ذلك بوضوح في كتاب فلافيوس بلوندوس (F. Blondus) الإيطالي وهو معاصر لإبن خلدون (١٢٨٨ - ١٤٦٣)(٢).

كذلك مذكرات (Memoirs) المؤرخ الفرنسي فيليب دي كومين (Philippe

(١) هريشو: مرجع سابق، ص ٣٠

(٢) رستم، أسد: مصطلح التاريخ ص ب (في المقدمة)

(de Commines) - وهو الملقب فى فرنسا بأبى التاريخ الحديث، فقد إستفاد من تقلبه فى كثير من المناصب السياسية فى كتابة مذكراته عن الحوادث حتى نهاية القرن الخامس عشر(١).

وكان تائر التاريخ بالنهضة الاوربية عميقاً وقوياً - فقد ترتبت على النهضة نتائج منها:

١ - صبغ التاريخ بالصبغة الزمنية، وتحول تدوين شؤون الدولة من رجال الدين إلى العلمانيين.

٢ - تغيرت الكتابة التاريخية كنتيجة طبيعية لإحياء الدراسات القديمة، واتجاه الإيطاليين بالذات إلى منابع هذه الحضارة القديمة أى إلى اللاتينية والأغريقية.

٣ - ظهور روح النقد والتمحيص والتحليل للمراجع والمصادر الأصلية، واستبعاد ما لا يثبت صحته منها.

وهكذا عاد إلى الظهور البحث الحر، والنقد بعد أن تحطم ما كانت تفرضه الكنيسة على العقول والأقلام والكتابات من حجر وقيد.

ولعل البداية كانت القبلة التى فجرها لورنزو فلا (Lorenzxo Volla) (١٤٠٦ - ١٤٥٧) بكتابه منحة قسطنطين (Donation of Constantine) الذى أثبت فيه بطلان هبة قسطنطين للبابوات، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تزويراً أفتعل فى روما بعد خمسة قرون من التاريخ الوارد فى الوثيقة. وكان البابوات قد إستندوا إلى هذه الوثيقة فى صراعهم ضد الأباطرة لإثبات حقهم فى السلطة الزمنية إذ أن هذه الهبة كانت تدعى أن قسطنطين - عندما نقل عاصمته إلى القسطنطينية - منح البابوات الحكم الزمنى فى إيطاليا، وظلت هذه الفكرة مسيطرة طوال العصور الوسطى، واستند إليها البابوات لإثبات إدعاءات لهم.

(١) توفى عام ١٥٠٩م.

لكن لاورنزو فلا أثبت أن هذه الإعدادات لاتقوم على أساس صحيح، وأن الوثيقة الأصلية التى تتعلق بهذه المنحة لا وجود لها، وبالإضافة إلى ذلك أشار إلى أنه لم يعثر على أية عملة بابوية تحمل ذكرى هذا الحادث الهام.

وقد أقام هذا الحدث حين نُشر وذاع رجال الدين وأقعدهم - لكنه على كل حال شجع على ذبوع روح النقد، فأصبح من المألوف أن يُثير المؤرخون والكتاب الشك فيما كان الناس يعتقدون أنه من الأخبار المسلم بها التى لايجب أن توضع موضع المناقشة والجدل.

فقد حذا حذو لورنزو فلا عدد كبير من مؤرخى عصر النهضة فى إيطاليا نذكر منهم على سبيل المثال نيكولا مكيافيللى (Nicola Machiavelli) (١٤٦٨ - ١٥٢٧) فقد كتب كتابا عن «تاريخ فلورنسه»، كما كتب كتابه المشهور «الأمير» (Il Principe) ضمنه آراءه التى إكتسبها نتيجة خبرته الواسعة بسياسة الجمهوريات الإيطالية وأوربا فى عهده، وقد وضع فيه كيف أن إيطاليا بحاجة إلى أمير مستبد قوى جرىء يوحدنا ويجعل منها دولة عظيمة^(١)

ولما انتشرت حركة النهضة خارج إيطاليا كان لها أيضاً أثرها على التاريخ والمؤرخين فظهر بوليدور فرجيل (Polydore Virgil) (١٤٧٠ - ١٥٥٠) الذى كتب عن تاريخ انجلترا فى عهد هنرى السابع.

وكانت لحركة الإصلاح الدينى التى ترعّمها مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) أثارها العميقة على الدراسات الفلسفية عامة والتاريخ بوجه خاص - فقد أشاع لوثر - أثناء تدريسه الفلسفة فى جامعة وتنبيرج (Wittenburg) سنة ١٥٠٨ - ١٥١٥ واللاهوت فى عامى ١٥١٥، ١٥١٦ - روح النقد والتحليل حين دعا الناس لدراسة الكتاب المقدس بأنفسهم دون الاعتماد على تفاسير رجال الدين أو الأخذ

(١) لمن يريد التوسع فى دراسة المادى، التى نادى بها مكيافيللى - انظر

Mortey, Ji Machiavelli

Schevill, I - A History of Florence

وكذلك

بها على أنها حُجج مسلم بها. وقد نشر رأيه بصراحة في أن الكنيسة قد انحرفت عن طريقها السوى الذي كانت تسير عليه في عهد المسيح والرسل الأوائل وأن ما يصدر عن البابوية من أحكام قد يكون صواباً وقد يكون خطأ، هذا بالإضافة إلى الرسائل المشهورة التي نشرها لوثر عن الأسر البابلي للكنيسة (The Babylonish Captivity of the Church)(١).

فقد أدى هذا لأن يُصبح للتاريخ قيمته - فقد دفع للبحث التاريخي بهدف الوصول للحقيقة في هذا الصراع بين المتمسكين بالكاثوليكية والداعين للآراء الجديدة. والحقيقة أننا لم نشهد تهاكماً على نبش أكذاس التاريخ الكنسي المهجور كالذي حدث بسبب هذا التصادم بين المتنافسين الكاثوليك والبروتستانت. ولم يصل البحث التاريخي من القوة والأهمية كما وصل خلال هذه المعارك.

وكانت حصيلة هذا ظهور العديد من الكتب والأبحاث ونشر العشرات من الوثائق. فكتب روبرت بارنز (Robert Barnes) (١٤٩٥ - ١٥٤٠) عن «سير بابوات روما»، وكتب جون فوكس (John Foxe) (١٥١٦ - ١٦٨٧) كتاب الشهداء (Book of Martyrs)، ونشر ماثياس فلاكيوس (Mathias Flacius) كتابه عن تاريخ الكنيسة المسيحية منذ قيامها في عهد الرسل حتى القرن الخامس عشر باسم «قرون مجد برج» (Magdeburg Centuries)، تناول فيه ما كان يجري في الجامعات الدينية، وما صدر عن البابوات.

وأنهري عدد من المتحمسين للكاثوليكية للرد عليه، وفي مقدمة هؤلاء قيصر بارونيوس (Caesar Baronius) - الذي كان أميناً لمكتبة الفاتيكان الضخمة

(١) فر عام ١٣٠٩ انتقل البابا (كلمنت الخامس) - وكان في الاصل أسقفاً فرنسياً - من روما إلى (افينيون) بفرنسا، ومن ذلك التاريخ خضعت البابوية لنفوذ ملوك فرنسا، ولم ترجع البابوية إلى روما إلا في ١٣٧٧م أي بعد ٧٠ عاماً، وعرفت هذه الفترة بمدّة الأسر البابلي، وأدت هذه الحادثة إلى إنقسام بين الكرادلة ورجال الدين، فقد وجد بابا في روما وأخرى في أفينيون، ففقدت الكنيسة كثيراً من صفات الزعامة الدينية التي لها

التي يرجع الإهتمام بها الى البابا نيقولا الخامس الذي جمع بها مجموعات ضخمة من الكتب والمخطوطات - فنشر بارونيوس كتاباً باسم (الحوليات) للرد على ما جاء في كتاب فلاكيوس، وترتب على ذلك إذاعة العديد من المعلومات والوثائق^(١).

وكان الإصلاح الديني المضاد الذي لا يقل أهمية عن حركة لوثر وهو (الإصلاح الكاثوليكي) أو انتعاش الكنيسة الكاثوليكية مما اثرى التاريخ أيضاً وأدى له أجل الخدمات.

وهكذا استفاد التاريخ من هذا الجدل والصراع الديني - أكبر فائدة سواء من ناحية المادة التاريخية لكثرة ما نُشر من وثائق، أو من ناحية الطريقة فقد شاع النقد والتحليل ولم يعد التسليم بما يُنشر أو يكتب - حتى ولو كان صادراً عن الدابوات أنفسهم - دون تمحيص أو مراجعة أمراً مقبولاً.

إن الفصل بين الدين والدولة، والدولة والحضارة باعتبارها السلطات الثلاث الدينية التي تم عن طريقها تطور جميع الأفعال التاريخية - كما يقول المؤرخ بوركار (Burkhardt) من أكثر الأمور أهمية.

فحين إنتظمت الممالك في أوروبا في القرن السادس عشر وتبلورت فكرة القومية - قامت عصبية وطنية جديدة، ونشأ شعور قومي، فقام علماء مؤرخون في دول الغرب يعنون بجمع المصادر عن تاريخ بلادهم بدافع الاعتزاز بالماضى - ولعل من أهم هذه المجموعات التاريخية الوطنية مجلدات تواريخ العصور الوسطى التي بدأ بنشرها في القرن السابع عشر - بعض الرهبان من جماعة القديس مور. وتتابع ظهور السلاسل التي تتناول تاريخ قطر معين من أقدم العصور في تتابع وتسلسل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر^(٢).

(١) هرنشو عرجع سابق ص ٥٧

(٢) رستم. أسد عرجع سابق - المقدمة ص ح

وترتب على النشاط العلمى والملاحى الذى صاحب النهضة الأوربية، وظهور الدول الوطنية الحديثة وشعورها بالعزة القومية - أن سعت الدول التى تم تكوينها إلى بسط سيطرتها على غيرها من الأمم والشعوب التى تأخر تكوينها أو التى كانت - فى نظر هذه الدول - أقل حضارة، وأقل قوة. وكان نشر المسيحية أيضاً من الحوافز الهامة وراء هذه الحركة التى أدت إلى الاكتشافات الجغرافية الهائلة وما تبعها من إستعمار.

دخلت البرتغال وأسبانيا ثم هولنده، وبلجيكا، وانجلترا، وفرنسا فى هذا الصراع الإستعمارى وترتب على ذلك قيام الامبراطوريات العظمى فى العالم الجديد وفى قارتى أفريقيا وآسيا.

وأدى ذلك لإحتكاك حضارى عجيب بين حضارة أوروبا، وبين هذه الحضارات المتعددة والمتباينة. وتهيأت للمؤرخين بذلك مادة دسمة حفزت خيالهم، فانبهروا لدراسة عادات وأدب وعقائد، ونظم الحكم، وتاريخ هذه الأقطار والشعوب الجديدة.

وكان طبيعياً أن يبرز فى هذا المجال العديد من المؤرخين الإسبان الذين جذبت أنظارهم هذه الأقطار الجديدة بعادات سكانها المغايرة لما ألفوه فى بلادهم.

كما كانت التوسع الاستعمارى الأوربى أثار إقتصادية خطيرة، فتدفق الذهب والفضة من مناجم المكسيك وبيرو على أوروبا. كما زرعت مساحات شاسعة فى البلاد المكتشفة (أمريكا على وجه الخصوص) بالطباق، وقصب السكر، وتطلب هذا نقل الزنوج الأفريقيين كعبيد إلى الأراضى الأمريكية، وأحدث هذا اضطراباً اجتماعياً، وبالذات فى طبقات العمال المهاجرين، وظهرت طبقات رأسمالية، وتكوين الشركات التجارية المساهمة القائمة على أساس الأسهم تشتري وتباع فى السوق الحرة ولها مجالس إدارة - كشركة الهند الشرقية الإنجليزية، وشركة الهند الشرقية الهولندية، ووجدت المصارف التى

تُمارس عمليات متعددة لم تكن معروفة من قبل. وبجانب هذه الطبقات الجديدة كانت هناك الأرستقراطية الزراعية متمثلة في كبار الإقطاعيين، وكان لهذه الطبقة تاريخها الطويل منذ العصور الوسطى، وما تمتعت به من إمتيازات عبر هذه العصور.

وتطلعت الطبقات الجديدة إلى الميدان السياسى، وتأثر تاريخ أوروبا بهذه الأحداث فكثرت البحث والتنقيب عن أصول وأسس الأسر الحاكمة فى أوروبا وحقيقة ما تدعيه من حقوق.

وتتميز هذه الحقبة من تاريخ أوروبا بظهور (الملكيات المطلقة) فظهر فى فرنسا ملوك البربون العظام، وفى ألمانيا أسرة الهابسبرج، وفى إنجلترا أسرة تيودور ثم أسرة استيوارت.

واشتعلت فى هذا القرن حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ١٦٤٨) التى إنتهت بصلح وستفاليا المشهور، فى عام ١٦٤٨.

على أن أهم الأحداث فى هذه الفترة من ١٥٥٠ إلى ١٦٥٠ فى تاريخ أوروبا يمكن أن نُجمله فيما يلى:

١ - الصراع بين أسبانيا والأراضى المنخفضة التى كان حكمها قد آل الى شارل الخامس (١٥١٩ - ١٥٥٦) عن جده مكسمليان، فعمد شارل الخامس الى أن يُنشئ بها حكومة موحدة رغم الإختلافات بين المقاطعات السبعة الشمالية والمقاطعات العشرة الجنوبية، وورث فيليب الثانى (١٥٥٦ - ١٥٩٨) حكم هذه البلاد من والده. لكن سياسته فيها فجرت روح الثورة التى تزعمها وليم أورنج - وانتهى هذا الصراع بقبول أسبانيا الهدنة مع هولندا فى عام ١٦٠٩ واعترافها رسميا فى معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ باستقلال هولندا.

وخلال هذه الأزمة إنبرى عدد كبير من المؤرخين للكتابة عن الأصول

التاريخية التي تسند حق الأراضى المنخفضة فى الحكم الذاتى والإستقلال الإقليمى عن حكومة اسبانبا المستبدة أو العكس..

٢ - الصراع بين الملكية وطبقة النبلاء الإقطاعيين فى فرنسا، وفى خلال هذا الصراع إنبرى عدد من الكتاب والمؤرخين للبحث والكتابة فى تاريخ الملكية الفرنسية والأصول التاريخية والدستورية التى تستند إليها، فخرج لنا العديد من الكتب عن تاريخ هذه البلاد.

٣ - الثورة الدستورية فى إنجلترا وقد برزت هذه الثورة بعد أن وصلت أسرة استيورت للحكم فى عام ١٦٠٢م بعد أسرة تيودور وحاول ملوكها أن يقلدوا النظم التى إتبعها كل من لويس الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣) ولويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥) فى فرنسا.

ويهفنا فى مجال الأثر التاريخى لهذا الصراع البرلمانى أن كلاً من الفريقين المتنازعين - الملوك من جانب، والبرلمانات من جانب آخر - شحذ قريحة أتباعه ليبرز الحجج والأسانيد التاريخية التى يستند إليها. الملوك يطالبون بسلطات يدعون أنها ثابتة تاريخياً، والبرلمانات تطالب بحقوق تدعى أنها أكسبت من زمن وصارت من حقها بلا منازع.

وأعطانا هذا الجدل الذى ثار خلال هذه المعارك الدستورية، مادة نادرة للتطور الدستورى فى إنجلترا ما كان يمكن أن نحصل عليها لولا هذا النزاع.

وجاء القرن الثامن عشر - فشهد حركة علمية وفلسفية واسعة ذات طابع ثورى أطلق عليها اسم (حركة الإستنارة) - إذ أنشئت - تحت رعاية الحكومات، الأكاديميات العلمية لتبادل وجهات النظر بين المتعلمين^(١).

(١) الأكاديمية - اسم لغاية تقع فى الشمال الغربى من مدينة أثينا - ويرجع اسمها للبلد الأغرقي القديم (أكاديموس)، وكان الفيلسوف افلاطون يلقى بالقرى منها تلامذته. ومن هنا كانت التسمية لمدرسته وفلسفته

وكذلك تعمل لنشر أبحاثهم وتشجيع الانتاج بمختلف الوسائل، فانشئت
فى انجلترا الاكاديمية الملكية فى ١٦٦٢، وفى فرنسا عام ١٦٦٦، كما انتشرت
المكتبات العامة والمتاحف.

ومن الذين برزوا فى القرن الثامن عشر فى مجال التاريخ - الفيلسوف
الإيطالى جيوفنى باتستافيكو Gio Vanni Battistavico (١٦٦٧ - ١٧٤٤) فقد
نشر فى عام ١٧٢٥ كتابه «اصول علم جديد» ذهب فيه إلى أن التاريخ فرع من
فروع العلوم الإنسانية وأن منهج البحث التاريخى يقوم على اصول منطقية، وأن
كل عصر من عصور التاريخ يمثل تطوراً معيناً^(١).

أما الكُتاب الفرنسيون فقد كانت كتاباتهم وأبحاثهم القيس الذى أثار
الطريق، أمام الفرنسيين وغيرهم فشعروا بالظلم الواقع عليهم، فهبوا مطالبين
بحقوقهم المهضومة، ولذا فقد كانوا القوة الدافعة للثورة الفرنسية. وفى مقدمة
هؤلاء منتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥)، ففى كتابه «روح القوانين»
Espirít des lois درس نظامى الحكم الإنجليزى والفرنسى، وتطورهما ووازن
بينهما، وأشار إلى تطور نظام الحكم عند الرومان وغيرهم من الحكومات فى
الماضى والحاضر - وتوصل فى النهاية إلى قاعدة هامة وهى «أن الأنظمة
السياسية لكى تكون ناجحة لابد من أن تكون ملائمة للحياة الطبيعية
والخصائص العقلية للشعب».

كما أن جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) فى كتابه «العقد
الاجتماعى» Le Contrat Social يذهب إلى أن الانسان ولد حراً لكنه تنازل عن
بعض حريته وحقوقه للمجتمع، فالحكومة تستمد قوتها من إرادة الشعب وتبقى
مشروعة طالما أنها تستند إلى هذه الإرادة الشعبية، وهى صاحبة السيادة، ولها
أن تعزل الحكام من مناصبهم متى شاحت، ولها أن تُغير الحكومة فى أى وقت،
وبالطبع تهدم هذه الآراء كل أساس تقوم عليه الملكية المطلقة الإستبدادية، ومن

حق الشعب فى ضوء هذه المبادئ، إبعاد الحكومة عن الحكم إذا وجد أنها خرجت على إرادة الشعب العامة وأخلت بذلك العقد، المبرم أصلاً بينها وبين الشعب صاحب السيادة العليا فى الدولة.

أما فولتير Voltaire (١٦٨٤ - ١٧٧٨) فعالج فى كتابه «عصر لويس الرابع عشر». عناصر القوة وأسباب الضعف فى فرنسا فى عهد هذا الملك، وإمتدح ما راه فى إنجلترا من سيادة القانون على جميع الناس دون تمييز، كما إمتدح نظام الحكم فى إنجلترا حيث يكفل حقوق كل من الملك، والأشراف والشعب. وتميزت كتاباته بالدعوة لتحكيم العقل ورفض ما لا يُقره.

وفى إنجلترا إنبرى المؤرخ الإنجليزي ادوارد جيبون Edward Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤) لتحليل أسباب قوة الإمبراطورية الرومانية، وأسباب إضمحلالها وسقوطها فى كتابه المشهور «تاريخ اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية».

The History of the Decline and fall of the Roman Empire (7 vols).

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات، ووجد فى مكتبات العديد من الحكام الذين حاولوا الإسترشاد بما جاء فيه. ولاتزال له أهميته وقيمته العلمية للطريقة التحليلية التى سار عليها المؤلف.

وكان من الآثار الطبيعية للمبادئ التى شاعت أثناء الثورة الفرنسية وبعدها شيوع روح النقد والتمحيص والتحليل للمراجع والمصادر والأفكار والآراء وإستبعاد ما لا يثبت صحته منها ولا يساير المنطق والعقل.

ويُعتبر المؤرخون الألمان (المدرسة التاريخية الألمانية) - أساتذة مدرسة النقد والتحليل، فقد تميزت كتب عددها كبير منهم منذ أواخر القرن الثامن عشر، وفى القرنين التاسع عشر والعشرين بالدقة والنقد لكثير مما ظهر من قبل من نظريات وأراء فى العصور السالفة

ظهر ذلك جلياً في كتابات وولف الألماني F.A. Wolf في عام ١٧٩٥ الذي وصل به الأمر - كما سبق أن ذكرنا - إلى أنه نفى ما كان شأننا من أن الألياذة والأوديسة كتبها هوميروس، وذهب إلى أنها من عمل جماعة من الشعراء في فترات زمنية متباعدة.

كذلك كتابات المؤرخ والفيلسوف الألماني هردير Herder الذي كان معاصراً لروسو وأطلق عليه اسم (روسو الألمان) واشتهر بكتابه عن فلسفة التاريخ^(١).

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه المؤرخ الألماني برتولد نيبور B. Niebuhr (١٧٧٦ - ١٨٣١) عن تاريخ الرومان، حلل فيه ما كتبه ليفي وغيره من تاريخ الرومان، فاثبت أنه بعيد كل البعد عن الحقيقة. واستطاع نيبور أن يفصل الأساطير فصلاً واضحاً دقيقاً عن الواقع التاريخي^(٢).

كذلك كتابات ليوبولد فون رانكي Rankel. Von (١٧٩٥ - ١٨٨٦) الذي كتب في تاريخ إيطاليا، وتركيا، وإنجلترا، وفرنسا - بالإضافة إلى مؤلفه الجليل عن تاريخ العالم الذي ظهر منه في حياته سبعة مجلدات، وأتمه تلاميذه من بعده، وكذلك كتابه «التاريخ الألماني في عهد الإصلاح الديني»



والحقيقة التي نخرج بها من هذا العرض لتطور التاريخ عبر هذه العصور هي أن التاريخ بدأ بالقصص الخيالية التي لا تخلو من الخرافات يتناقلها الأبناء عن الآباء، وفي العصور الوسطى أصبح دينياً يختص به رجال الكنيسة، وفي عصر النهضة أصبح وطنياً قومياً يهتم بإثبات الشخصية الخاصة المتميزة

(١) كاسبرر، أرشت: مرجع سابق ص ١٣

(٢) نفس المرجع ص ١٩

لمجموعة من الناس، أما في القرن الثامن عشر فإن الكتاب من أمثال فولتير وجبون كانوا يهدفون من كتاباتهم إلى غرض سياسى.

وجاء القرن التاسع عشر، والتاريخ - رغم ما حققه من تقدم فى محاولة البعد عن السرد أو الجنوح إلى روح النقد والتحليل - كانت لا تزال أقدامه تهتز ومن حيث الهدف منه، والأسس التى يجب أن تقوم عليها الكتابة التاريخية أى ما نعبر عنه اليوم (بالمناهج).

لقد تميز القرن التاسع عشر بظاهرة هامة هى جمع المصادر التاريخية ونشرها. ساعد على ذلك ما اكتسبه الناشر من خبرة فنية فبدأت تظهر مجاميع علمية هامة قدمت للباحث التاريخى مادة علمية وفيرة. فبدأت تظهر مجموعات من الوثائق التاريخية من مصادر متعددة لا حصر لها وبوت وقسمت وفهرست - وشجعت الحكومات والهيئات العلمية هذا العمل^(١)

ففى ألمانيا قامت (جمعية دراسة التاريخ الألماني) منذ ١٨١٩م بنشر سلسلة من الوثائق تتعلق بتاريخ ألمانيا تحت اسم (أصول التاريخ الألماني القديم).

وفى فرنسا تكونت فى عام ١٨٣٤م (جمعية تاريخ فرنسا) وقد نشرت عدة مجلدات فى مصادر التاريخ الفرنسى

وفى عام ١٨٣٦ شرعت بلجيكا فى نشر العديد من الوثائق التى كانت بدار محفوظاتها - كذلك أسبانيا فى عام ١٨٤٢، والنمسا فى عام ١٨٤٩م

ومنذ عام ١٨٥٧ أخذت (مصلحة المطبوعات الرسمية) البريطانية تنشر ما عرف باسم (تقاويم الأوراق الرسمية)، كما نشرت سلسلة كبيرة من الوثائق تحت إسم (تواريخ ومذكرات بريطانيا العظمى، وإيرلنده فى العصور الوسطى) وذلك فى مجلدات بلغ عددها فى عام ١٨٦٩ - ٢٤٤ مجلدا.

(١) هرتشور: مرجع سابق ص ٨٦ وما بعدها

كما تشكلت في بريطانيا في عام ١٨٦٩ (لجنة المخطوطات التاريخية) لنحس وفهرسة ونشر مجاميع الوثائق الهامة التي كانت في حيازة الهيئات البلدية وغيرها.

وفي الولايات المتحدة أخذت الجامعات (جامعة هارفارد، وجامعة كولبيا، وجامعة متشيغان.. وغيرها) تهتم بنشر ما يتعلق بتاريخ أمريكا من وثائق.

وقد بلغ من ضخامة المادة العلمية المنشورة - في هذا القرن التاسع عشر أن أصبح المؤرخون غير قادرين على متابعة والاستفادة مما يُنشر، وبالطبع أدى هذا للتخصص الدقيق - فتخصص قوم في التاريخ الاقتصادي أو السياسي أو الإجتماعي - وهكذا.. وأصبح لفظ مؤرخ بمفهومه العام الشامل غير مستساغ

ويذكر كاسير «إن ماتحقق من تقدم في علم التاريخ يُعتبر من أعظم إنجازات عصر الإستنارة، فقد دفع للبحث في طائفة جديدة من المسائل التاريخية، كما دفع إلى وضع المناهج المتميزة للمعرفة التاريخية.. فالقرن التاسع عشر يعتبر من خصائصه ليس فقط إكتشاف التفكير التاريخي، بل أيضاً تقديم علم التاريخ في صورة جديدة»^(١).

ونشير في نهاية هذا الفصل إلى ما إنتهى إليه الفيلسوف الألماني هيغل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) عند حديثه عن فلسفة التاريخ - فنذكر أن التاريخ هو عبارة عن علاقة الدول بعضها ببعض، وعلاقتها بالروح العام السائدة في العالم، وتاريخ العالم هو عبارة عن (مجلس قضاء) يمسك فيه بصولجان الحكم شعب واحد، ويظل كذلك إلى أن يظهر شعب آخر أقدر منه فينتزع منه ذلك الصولجان وهكذا.

(١) كاسير، ارنست: مرجع سابق ص ٤.

وتاريخ العالم فى نظره - حتى عصره - مر فى ثلاثة مراحل هى:

- الشرقى تمثل فى الحاكم المستبد.

- اليونانى الرومانى - تمثل فى النظام الذى ساد العالم يومئذ.

- الجرمانى - تمثل فى ظهور شخصية الانسان من حيث هو انسان.

ولاشك فى اننا لا يمكن أن نقبل وجهة نظر هجيل فى التاريخ وتصوره له

كماهى دون مناقشة لكن على كل حال هى وجهة نظر فيلسوف له مكانته ويمكن

أن نوضع على بساط المناقشة.



الفصل الثانى

التاريخ عند العرب

مباحث هذا الفصل:

- التاريخ عند العرب فى الجاهلية (الأيام، الأنساب، تاريخ ملوك الحيرة)
- تطور علم التاريخ عند العرب بعد الإسلام والعوامل التى أثرت فيه.
- المراحل التى مرت بها الكتابة التاريخية عند العرب بعد الإسلام.
- مدارس الحركة التاريخية عند العرب المسلمين وخصائص كل منها:
 - المدرسة اليمانية (وهب بن منبه).
 - المدرسة الحجازية فى المدينة (عروة بن الزبير، والزهرى).
 - المدرسة العراقية فى الكوفة، والبصرة، وبغداد، وأئمة مؤرخى القرن الثالث الهجرى. (البلاذرى، واليعقوبى، الدينورى، وابن قتيبة، والطبرى).
 - مدرسة التاريخ فى مصر والشام.
 - مدرسة التاريخ فى الأندلس.
- المؤثرات التى أثرت فى الكتابة التاريخية عند العرب.
- أهم المواضيع التى تناولها المؤرخون العرب فى كتاباتهم.



ألمنا بتطور علم التاريخ وتتبعنا المراحل التي مر بها هذا التطور عند الأوربيين والمؤثرات التي أثرت على الكتابة التاريخية عندهم

والأسئلة التي تفرض نفسها علينا بعد ذلك هي .

هل كان للعرب في الجاهلية إهتمام بالتاريخ؟

وما التغيير الذي طرأ على الكتابة التاريخية بعد الإسلام؟

وما الأطوار التي مر بها هذا التغيير؟

وما العوامل التي أثرت في الكتابة التاريخية عندهم؟

كل هذه وأمثالها أسئلة لا بد أن تجول بالأذهان لندرك موقفنا من هذه الحركة العلمية ودورها فيها .

كان العرب قبل الإسلام يحددون الأوقات بالنجوم والأهلة، كما كانوا يؤرخون بالأحداث العظمية الحاسمة، والوقائع المشهورة - كعام الفيل، وبناء الكعبة ونحوها.. وظل الأمر كذلك، حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب - فأمر أن تُخذ الهجرة النبوية بداية للتاريخ العربي فمضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا^(١).

ولا نكاد نجد للعرب في الجاهلية تاريخاً مدوناً باستثناء بعض النقوش على المباني القديمة في اليمن التي تحكى أخبار بعض ملوكهم وشؤونهم العامة، وكذلك أخبار ملوك الحيرة المسيحيين التي كانت مودعة في الأديرة والكنائس ببلادهم^(٢).

لكن العرب كانوا يتذكرون أيامهم عن طريق الرواية الشفوية ويتفاجرون

(١) العبادي، عبد الحميد: علم التاريخ ص ٣٤.

(فصل إضافته للترجمة العربية لكتاب هرنشو السابق الإشارة إليه)

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٣٧

بما أحرزه أجدادهم من انتصارات، وذلك عن طريق الشعر أو النثر، وبالطبع
إصطبغت أمثال هذه الأشعار بالمغلاة.

كذلك كانت القبائل تتفاخر بنفسبها، وتحرص على أن تلقنه لأطفالها
فتتناقله الأجيال، وكان ذلك مصحوباً بالطبع بقصص البطولات المرتبطة بهذه
القبائل، وقد ظلت للأسباب أهميتها بعد الإسلام للإستعانة بها فى تقدير العطاء
للجند.

وهكذا وصلتنا روايات عن عرب اليمن ومالوكهم فقد أورد هؤلاء الرواة
قصصاً خيالية لتاريخ اليمنيين نسبوا فيها إليهم أمجاداً فى الحرب، وفى الأدب
واللغة.. ليدللوا على أنهم سبقوا عرب الشمال فى أمجادهم أو أنهم لا يقلون
عنهم فى ذلك.

كما وصلتنا أخبار عرب الشمال مما هو محفوظ فى نقوش وكتب كنانس
وأديرة الحيرة، بالإضافة إلى الروايات الشفهية عن غزواتهم ومعاركهم (الأيام)
وحول أنسابهم.

وبلاحظ أن الروايات القبليّة حول غزوات العرب ومعاركهم والتي أطلقوا
عليهم لفظ (الأيام) كانت فى البداية شفهيّة وبصورة نثرية، لكن تخللها الشعر
وأعطاهأ أهميته، وكانت تسليتهم فى المجالس القبليّة السانبة، وبقيت كذلك بعد
ظهور الإسلام وحتى القرن الثمانى الهجرى (الثامن الميلادى) حين جُمعت
الروايات وصُنفت، وهكذا صارت (الأيام) جزءاً من الأخبار التاريخية، كما أن
ورود الشعر فيها جعلها موضع إهتمام اللغويين، والمؤرخين.

ويذكر حاجى خليفة^(١) أن علم أيام العرب هو علم يبحث فيه عن الوقائع
العظيمة، والأحوال الشديدة بين القبائل.. وينبغى لذلك أن يجعل فرعاً من فروع
التواريخ^(١).

(١) خليفة، حاجى. كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ج ١ ص ٢٠٤.

وكانت للعرب قبل الإسلام صلاتهم ببعض الشعوب المجاورة لهم كالروم والفرس، سواء بسبب الإحتكاك التجارى أو الحربى - لذلك كان طبيعياً أن تتناول قصصهم ورواياتهم شيئاً من تاريخ هذه الشعوب وأخبار ملوكهم.

فلما جاء الإسلام، وقامت الدولة العربية - أصبحت الحاجة ماسة لتدوين التاريخ، واتسع هذا العلم تطور حتى أصبح من أهم العلوم عند العرب - وذلك لأسباب:

١ - السيرة والمغازى:

عنى المسلمون بجمع الأحاديث النبوية ليفسروا بها القرآن، وليسترشدوا بها فى معرفة أحكام الدين، وكانت هذه الأحاديث يتعلق بعضها بحياة النبى ﷺ والصحابة والغزوات، وما حدث خلالها، ولذلك وجد المتخصصون فى رواية الحديث (المحدثون)، وكانت لهم منزلة كبيرة عند الناس، فهم الذين يحدثون الناس عن أقوال الرسول وأفعاله، وهذه لها أهميتها عند عامة الناس، وعند الحكام للإعتماد عليها فى التشريع، وفى تنظيم الإدارة، وفى شؤون الحياة عامة، فهى أصل من أصول التشريع فى الإسلام.

كذلك جعلت الفتوحات الكبرى ومغازى الرسول، وغزوات أصحابه، العرب يحسون بأن لهم دوراً تاريخياً خطيراً يستحق للتسجيل والتمجيد، كما كانت مواضع محببة فى مجالس السمر.

٢ - رغبة المسلمين فى فهم ما جاء فى القرآن والسنة - من إشارات إلى الأمم الغابرة.

وعلى ذلك كان الاهتمام بالرواية التاريخية التى تتناول أخبار الأمم القديمة، وتاريخ الأنبياء السابقين، وأصول الجاهلية، وحوادث الإسلام

وقد اشتمل القرآن والسنة على كثير من أخبار اليهود والنصارى

الصابئين والمجوس، وكان تعرضه لها مختصراً، فأراد المفسرون أن يتوسعوا في تفسير ذلك، فكان محالهم أخبار اليهود والنصارى وغيرهما مما ورد في التوراة والإنجيل وشروحها وحواشيها، والطبرى في تاريخه «تاريخ الأمم والملوك» يتعرض لذلك ويهتم بالتعريف برواة الأخبار لكل أمة من الأمم التي عرفها العرب

وممن اشتهر من الرواة وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ - ٧٢٢م) وستفصل ذلك عند الحديث عن مدارس التاريخ العربى^(١).

٢ - رغبة الخلفاء في الإطلاع على سياسات الملوك الآخرين ليعرفوا كيف يسوسون شعوبهم، خاصة بعد أن تعددت المشكلات السياسية والاجتماعية والإقتصادية وغيرها في الدول العربية وتشعبت المشكلات

وقد ذكر السعودى إن معاوية كان يعد أن يفرغ من عمله «يستمر إلى ثلث الليل يستمع إلى أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتهما، وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة.. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارهم، والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون... فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات»^(٢).

(١) الاسرائيليات - يقصد بها الاحاديث الإسرائيلية المتعلقة بأحداث جاء ذكرها في القرآن الكريم ويشير إليها ابن كثير ، ويذكر انها تذكر للإستشهاد لا للاعتقاد، ويقسمها إلى ثلاثة أقسام:

أحدها - ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك، صحيح

الثانى - ما علمنا كذبه مما عندنا ما يخالفه.

الثالث - ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل - فلا تؤمن به ولا تكذبه، ويجوز حكايته، ومثال ذلك ما لا فائدة عنه تعود إلى أمره، ينى - مثل أسماء أصحاب الكهف، وعصا موسى من اى الشجر كانت.

اسماعيل، أبو الفداء بن كثير القرشي الدمشقى: تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤

(٢) السعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٣ ص ٥٢

٤ - تقدير الجزية والخراج: رغبة الولاة فى معرفة ما فُتِح من الأقطار صلحا، وما فتح عنوة، أو بعهد. فقد كان النظام المالى مع هذه الأقطار من جزية وخراج يختلف تبعا لذلك، وقد دعا هذا مؤرخى البلدان أن يعقدوا الفصول الطويلة يبينون فيها حال البلد فى الفتح.. مثال ذلك «تاريخ بغداد» للخطيب البغدائى، و«فتوح البلدان» للبلاذرى^(١).

٥ — نظام العطاء والجند: كان مرتبا حسب الأنساب، وحسب الاسبقية إلى الإسلام.

وهكذا استلزم تنظيم شئون الدولة المالية الاهتمام بهذا النوع من التاريخ فظهرت كتب (الطبقات).

٦ - احتكاك العرب بشعوب وأمم لها تاريخها، فكان من الطبيعى أن يكون للعرب تاريخهم. يظهرون للشعوب الأخرى إنهم وإن كانوا حديثى العهد بالحضارة لكنهم قادرين على أن يسايروا الحضارات الأخرى، وأن يستوعبوا منها مايلانهم بل وأن يتفوقوا عليها.

٧ — ازدهار حركة الترجمة والتأليف عامة باتساع الدولة العربية وتطورها وتشجيع الخلفاء لهذه الحركة العلمية، فكان طبيعياً أن يكون للتاريخ حظه من هذا التطور والتقدم.

٨ — حوادث الخلاف بين المسلمين، كالذى كان بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة النبى ﷺ، والخلاف بين الأمويين والشيعة، وبينهم وبين الخوارج. كل هذا أدى للكتابة لتكون مجالا يدعم به كل فريق عقائده فى هذه المسائل السياسية.

على أن الكتابة التاريخية عند العرب بعد الإسلام مرت فى أطوار مختلفة نجملها فيما يلى:

(١) امين، احمد: ضحى الإسلام ج٢ ص ٢٣٩

أولاً: القصص والأساطير الشعبية:

هذه المرحلة امتداد لما كان سائداً قبل الإسلام، وقد أشرنا لذلك من قبل. وكان طبيعياً أن يستمر هذا اللون من الرواية التاريخية عن أيام العرب وحروبهم وعلاقاتهم بالشعوب التي اتصلوا بها، فقد ظل القصص و(الأخباريون) يرددون هذا النوع من القصص المبالغ فيها، وهي لا تعتمد كثيراً على توثيق تاريخي لما ترويهِ من أحداث لكنها تتناول الحروب الهامة والأحداث الفارقة دون إهتمام بالربط التاريخي.

وقد وفرت هذه القصص مادة للشعراء - لكن لم يكن معقولاً أن يستمر الحال على هذا المنوال بعد أن تعددت أحداث الجزيرة العربية فأصبح الأمر يستلزم دقة أكثر وربطاً للأحداث وتركيزاً على الهام منها المرتبط بمصير العرب وبالأدين الجديد.

ثانياً: مؤرخو السيرة والمغازي:

اشتهر عدد من الكتاب بالتاريخ للسيرة النبوية ومغازي الرسول ﷺ. وغزوات أصحابه. ولعل أول ما ظهر في هذا الشأن هو كتاب موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ. ثم كتاب محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥٠هـ الذي إختصره عبد الملك بن هشام، ومن بعد ذلك مغازي الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ ثم طبقات بن سعد المتوفى ٢٣٠هـ^(١).

لكن لم تقتصر كتابات هؤلاء على السيرة النبوية، أود كر الغزوات فقد كان الكاتب عادة حتى القرن الثاني الهجري يبدأ بالحديث عن أخبار الماضي، ثم يتعرض لأحوال السيرة النبوية، ثم يختم بالحديث عن أخبار الدولة الإسلامية.

وظلت كتابات هؤلاء المؤرخين متأثرة بالتيار القصصي السالف الذكر.

(١) الكلاعي، الإكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ج ١ المقدمة ص ٨.

ولعل الرسول ﷺ كان يمثل فى هذه السير - فى نظرهم - دور البطل فى قصص الجاهلية.

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية فى هذه المرحلة - استمرار لما كان يوجد فى الجاهلية. ويمكن أن نقول أن هذه الكتابة حتى هذه المرحلة لم تكن قد تأثرت بعد بمؤثرات بل كانت عربية خالصة.

وإذا تظهر فيها الخصائص التى لسنهاها فى الجاهلية من الإهتمام بالأيام والأنساب، ولعل ذلك يتمثل خير تمثيل فى كتابات محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦هـ (١).

ثالثاً: منذ أوائل القرن الثالث الهجرى توفرت المصادر الأصلية للمادة التاريخية لخدمة المؤرخين العرب - فقد استقرت دواوين الدولة العباسية (ديوان الإنشاء، وديوان الجند، والخوارج، والبريد....).

وتيسر للمشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا مما فى هذه الدواوين من المراسلات الرسمية أو العهود، أو الإحصاءات.

كما أن الأحداث نفسها من ولاية كبار رجال الدولة، أو الوقائع والغزوات أو أعمال القضاة، أو غير ذلك - وفرت مادة علمية دسمة للكتابة التاريخية.

وقامت فى هذا العصر حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية، والسريانية، واليونانية، واللاتينية.

بدأ هذه الحركة - حركة الترجمة - ابن المقفع بترجمة كتابى (خبر نيامة)، و(ابينامه) فى تاريخ الفرس، وكذلك البلاذرى المتوفى عام ٢٧٩هـ الذى ترجم إلى العربية عهد (اردشير) (٢).

(١) نصار، حسين: مرجع سابق، ص ٧٢، ٧٤.

(٢) العبادى: عبدالحميد: مرجع سابق ص ٤٩.

(عن الفهرست ص ٦٤، ١٧٢)

على أن سهولة التنقل التي توفرت بين أنحاء الدولة الإسلامية في ذلك العهد - أتاحت فرصة للمؤرخين، وطلاب العلم للرحلة لمشاهدة عجائب البلاد وأثارها، والأخذ عن الشيوخ والمشهود لهم بالدقة والصدق

وعلى هذا يمكن أن نجمل مصادر التاريخ التي أخذ منه مؤرخو هذه الحقبة في أربعة:

(أ) كتب السيرة والأخبار.

(ب) السجلات الرسمية.

(ج) الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية.

(د) المشاهدة والمشافهة.

رابعاً: لما تعرضت الدولة العباسية للحركات الانفصالية، وتداعت الوحدة السياسية للدولة وإنفصلت عنها في الشرق والغرب - دويلات متعددة تأثرت الكتابة التاريخية بهذا التفرق السياسي الذي أصاب الدولة

فبعد أن كانت حاضرة الخلافة هي مركز الحركة الثقافية ومحورها - تعددت المراكز، وتنافسست بغداد، وأصفهان، وحلب، والحواضر المصرية، والقيروان، وقرطبة وغيرها.

وكثر العلماء في الأمصار المختلفة، وترتب على ذلك التركيز على التواريخ المحلية. فكتب ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) كتاب فتوح مصر والمغرب، والكندي (ت ٣٥٠هـ) كتاب ولاية مصر وقضاتها، وابن عسكر (ت ٥٧١هـ) تاريخ دمشق، وابن عذارى كتاب التبيان المغرب في أخبار المغرب

على أن ذلك لم يحل دون الإستمرار في تدوين سلاسل التاريخ العام للأمة الإسلامية كلها^(١).

(١) العبادي: عبد الحميد: مرجع سابق ص ٤١.

فكتب المسعودى (ت ٣٤٦هـ) مروج الذهب وأخبار الزمان

وابن مسكويه (ت ٤٢١هـ) - تجارب الأمم .

وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) - الكامل فى التاريخ .

وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) - المختصر فى أخبار البشر .

وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) - العبر وديوان المبتدأ والخبر

خامساً: تعرض العالم الإسلامى بعد ذلك للأطماع الأجنبية، فأغار

عليه الصليبيون فى القرنين الخامس والسادس الهجريين، كم أغار التتار على

عاصمة الخلافة العباسية ودمروها، هذا بالإضافة إلى ما أصاب الخلافة

الأموية فى الأندلس من انقسام فقامت (ممالك الطوائف) بها، ثم أخذت تسقط

الواحدة تلو الأخرى حتى لم يبق للمسلمين فى الأندلس (فردوس العرب المفقود)

إلا غرناطة التى حكمها بنو الأحمر حتى سقوطها فى يد الأسبان فى عام

١٤٩٢م.

وأثرت كل هذه الأحداث بلا شك فى الكتابة التاريخية عند العرب -

فإنبرى عدد من المؤرخين يتناولون بالتعليل والتحليل - عوامل قيام الدول

وأسباب قوتها وعلل انحلالها وسقوطها .

ولاشك فى أن هذا الاتجاه ساعد المؤرخين العرب على الخروج عن

المألوف - سواء فى سرد الأحداث أو ذكرها منسوبة لمصدرها دون تعليل أو

تعليل - إلى أن يقفوا من الأحداث موقفاً فلسفياً عميقاً ليصلوا إلى أسبابها

ويحللوا النتائج التى ترتبت عليها .

سادساً: على أن التطور الهام فى التدوين التاريخى عند العرب يتمثل فى

النظرة للتاريخ على أنه علم له أصوله فى البحث والكتابة

ويعتبر ابن خلدون فى مقدمة الذين نهجوا هذا النهج ونادوا

بهذا المبدأ .

فقد كتب فى مقدمته فى فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، وأشار إلى اخطاء المؤرخين فحذر من الوقوع تحت تأثير النقل من الأقدميين - دون مراعاة لأصول البحث العلمى التى شرحها وأوضحها فى مقدمته(١).

كذلك إتجه هذا الإتجاه. فى إبراز قيمة التاريخ كعلم - السخاوى فى كتابه «الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» - وهو عبارة عن مقالة طويلة عن التاريخ وفضله كعلم، وتحدث فيها عن علم التاريخ لغة واصطلاحاً، وبين فائده وذكر بعض المصنفات التاريخية وأربابها ومتى بدأ الاهتمام به، وذم من ذم التاريخ(٢)

مدارس الحركة التاريخية عند المسلمين(٣):

فى ضوء ما تقدم نجد أن هناك خمسة مدار واضحة المعالم فى تطور الحركة التاريخية عند العرب.

(١) ولد ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد - فى تونس، وتولى عدة مناصب فى القصور الملكية بقاس، وغرناطة، وبوجيه، وتونس - وتوفى بالقاهرة فى ١٩ مارس ١٤٠٦م حيث كان يعلم فى الأزهر الشريف - وقد قضى فى مصر مدة بلغت ٢٤ عاما وكتابه «العبر وديوان المبتدا والخبر» قسمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول (المقدمة): عرض فيها الأصول العامة لعلم التاريخ، والاسس الفلسفية لتاريخ الشعوب الإسلامية.

القسم الثانى: يتناول تاريخ للشعوب العربية وما جاورها من الأمم الشهيرة.

القسم الثالث: يتناول تاريخ البربر والأسر الإسلامية فى شمال أفريقيا.

وقد ترجمت مقدمته لعدة لغات، وترجمت إلى التركية مرتين - الأولى طبعت بالقاهرة عام ١٧٢١م، والثانية ترجمها جودت باشا مؤرخ الدولة العثمانية - وطبعت بالأسبانية سنة ١١٣٧هـ، كما ترجمها إلى الفرنسية أنبارون (ده سلاز)، وتوجد نسخة من المقدمة بدار الكتب المصرية عليها تصحيحات بقلم ابن خلدون نفسه، كما توجد فى (فاس) بالمغرب نسخة أخرى مجهزة بخطه.

ولمن يريد المزيد عن ابن خلدون ومؤلفاته - انظر

دوى، عبدالرحمن مؤلفات ابن خلدون (القاهرة ١٩٦٢)

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية.

وقد صدرت منه طبعة فى دمشق ١٢٤٩هـ

(٣) مدرسة هنا نعى بها الحركة العلمية لا البناء الخاص بالتعليم

أولاً - المدرسة اليمنية:

وقد إهتمت بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ اليمن، والتايخ فيها قصص وأساطير.

فهي استمرار للتيار الجاهلى، والأورخون هنا قصاص شعبيون أو إخباريون يرددون الروايات، التاريخية كما هي دون محاولة جادة لتقدمها أو تخليصها من الخرافات.

ففيها تبدو بوضوح السمات التي ذكرناها عن الروايات اليمنية في طابعها الأسطوري القصصى فهي مزيج من القصص الشعبى، والإسرائيليات وفيها تمجيد لعرب اليمن، كما أنها في أسلوبها لاتخرج كثيراً عن أسلوب قصص أيام العرب.

والبعض ينظر لرواد هذه المدرسة على أنهم قصاص أكثر منهم مؤرخين.

وفى مقدمة هؤلاء وهب بن منبه، وعبيد بن شريه.

وسنشير - لوهب بن منبه - بشيء من التفصيل بإعتباره يمثل بحق هذه المدرسة اليمنية.

ورغم أن البعض زج بوهب بن منبه فى نطاق أهل المغازى - لكن وضعه الحقيقى فى نطاق هذه المدرسة اليمنية بطابعها الذى اشتهرت به من اهتمام بالقصص والإسرائيليات^(١).

ولد وهب بن منبه فى اليمن، وهناك اختلاف، فى تاريخ ولادته، وفى تاريخ وفاته، لكن لعل الأرجح أنه ولد فى سنة ٢٤ هـ (٦٥٤ - ٦٥٥ م) كما يذكر الدورى^(٢).

(١) الدورى، عبدالعزيز. بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٠٣

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة

ويصفه كل من ياقوت، وابن خلكان، والذهبي (بصاحب الاخبار والقصص).

وهو يستقى مواده من الروايات الشفوية، ومن كتب الأنبياء وغيرها، فقد اشتهر بسعة الإطلاع.

فقد روى قطعاً من العهد القديم (التوراة)، خاصة من المزامير وسفر التكوين، ولعله أخذ أيضاً من الأنجيل معلومات عن ميلاد المسيح وحياته، وعن بداية المسيحية وانتشارها في اليمن بالذات.

ونُسبت إليه العديد من المؤلفات، رغم أنه ام يصلنا منها إلا القليل من المقتبسات التي إقتبسها بعض الكتاب عنه مثل الطبري، وابن قتيبة وغيرهما.

ومما ينسب إليه أنه ألف «أحاديث الأنبياء، والعباد، وأحاديث بنى اسرائيل» و«مبتدأ الخلق» و«الاسرائيليات» وكتاب «الملوك» المترجمه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم.

ويبدو من هذا أنه اهتم بالكتابة عن - خلق السموات والارض، وقصص الانبياء، وخاصة من بنى اسرائيل.

وبالإضافة إلى هذا الف وهب في المغازي - لكن لم يشر لكتابات هذه في كتب السيرة - مما يجعلنا ان نضعه في مكانه الصحيح باعتباره من كتاب الاقاصيص والاساطير اليمينيين، وأنه امتداد لفترة ما قبل الإسلام، وإن له اثاره التي امتدت لفترات تالية، فقد أدخل (عنصر القصة) في حقل التاريخ الإسلامى. ولا يخفى علينا أن القصص الشعبي عن السيرة وعن المسلمين الأوائل هو - كما قلنا - إمتداد للقصص القديم في أسلوبه وطريقته.

فدور وهب بن منبه وأمثاله إذن هو أنهم كانوا أول من وضعوا ميكلا - وإن كان قصصيا - لتاريخ النبوة منذ بدء الخليقة حتى ظهور الإسلام، وقد تأثر بهم بعض المؤرخين التاليين.

ولم يكن للأخبار والرويات فى البداية أسانيد، بل استمرت كجزء من الثقافة العامة وهى تهم الجميع، وكان رواية الشعر أو مثايخ القبائل هم الرواة الأساسيون لها، وهكذا استمر هذا الوضع الى فترة فى المجتمع الإسلامى الأول كما كان الوضع قبل الإسلام - لكن ظهور الإسلام، واستقرار القبائل فى الأمصار أدى إلى تغيير كبير خاصة حين بدأ الاهتمام بالكتابة والقراءة وحدث ثورة ثقافية كان للتاريخ بالطبع نصيبه فيها.

هذا وقد ارتفع شأن القصص حتى أصبح عملاً رسمياً يعهد به إلى رجال رسميين يعطون عليه أجراً - فقد ذكر الكندى فى كتابه (القضاة) أن كثيراً من القضاة كانوا يعينون أيضاً (قصاصاً)، وكان القاضى يجلس فى المسجد وحوله الناس فيذكروهم بالله ويقص عليهم حكايات وقصصاً عن الأمم الأخرى وهكذا^(١)

ثانياً - المدرسة الحجازية (فى المدينة ومكة):

هى مدرسة كتاب السيرة والمغازى^(٢)

الذين اهتموا بعرض الظروف والأحداث التاريخية الهامة فى حياة الرسول والمسلمين الأولين.

وقد اعتمدوا على شيئين:

الأول - ما كان دائراً بين العرب من أخبار الجاهلية

الثانى - أحاديث رواها الصحابة، والتابعون ومن بعدهم عن حياة النبى ﷺ وعن ولادته ونشأته ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع المشركين، وغزواته. وعلى الجملة أخباره إلى حين وفاته.

(١) امين، احمد: فجر الإسلام ص ١٩٠ ومابعدها

(٢) اصل المغازى - جمع مغزى، ومغزاه وكلاهما معناه موضع الغزو، او الغزو نفسه ثم توسعوا فى معناها فاطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم استعملوها استعمالات واسعة للدلالة على حياة النبى ﷺ حتى جعلوها مرادفة للسيرة - انظر

امين، احمد: ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢١٩

ويقسم الدكتور أحمد، أمين مؤرخى السيرة والغازى حسب المصادر التى استقروا منها معلوماتهم إلى ثلاث طبقات (١).

وقد سار هؤلاء الكُتاب على نمط علماء (الحديث) فى كتاباتهم، من الإهتمام بالاسانيد.

ومن الطبيعى أن تكون المدينة هى أهم مصدر للمغازى فقد وقعت أكثر الأحداث تحت أعين أهلها.

وشملت كتاباتهم ما إتصل بعهد الرسول، والخلفاء الراشدين والامويين أيضاً - وسنشير بإيجاز لإثنين من أبرز المنتمين لهذه المدرسة وما تناولته كتاباتهم، لإلقاء الضوء على هذه المدرسة التاريخية وإهتماماتها، واتجاهات أتباعها - وهما عروة بن الزبير، وتلميذه أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله ابن عبد الله بن شهاب الذى اشتهر باسم الزهرى (٢).

أما عن عروة بن الزبير - فهو ينتسب من جهة الأب والام لأسرتين من أشرف قريش، فأبوه القائد العربى الزبير بن العوام وأمه أسماء بنت أبى بكر (٣).

ولد سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ م) وتوفى سنة ٩٤ هـ (٧١٢ م) ونشأ فى المدينة وزار مصر وأقام بها سبع سنين، كما زار دمشق عدة مرات. كان زاهداً فى الدنيا، مُحباً للعمل، أمضى حياته بين الدرس والتدريس حتى أصبح من فقهاء المدينة، ولم يزوج بنفسه فى الأحداث السياسية فى زمنه، ومع أنه كان ضد سياسة

(١) أمين، أحمد: ضحى الإسلام ج٢ ص ٣٢٠.

(٢) إن يريد تفصيلات أكثر عن هذين الفقيهين يرجع إلى:

(أ) الدرر، مرجع سابق.

(ب) هوروفتش، يوسف: المغازى الأولى ومؤلفوها (تعريب، نصار، حسين - القاهرة ١٩٤٩).

(٣) انظر نسبه كاملاً فى:

البلاذرى، أنساب الإشراف ج١ ص ٣٧٨.

الأمويين فقد احترموه لعلمه فكانوا يسترشدون بعلمه ومعرفته فيما يتعلق بالأحداث الخاصة بفترة الرسالة.

فقد أرسل الخليفة عبدالملك بن مروان يسأله عن حوادث، تتعلق بالرسالة وقد ذكر الطبري بعضها^(١).

وقد اهتم عروة في كتاباته بالإسناد في غالب الأحيان وهذا يُعطي لكتاباتة أهمية خاصة - لكنه لم يلتزم بهذا في كل رواياته.

وعلى كل لم تكن قواعد الإسناد قد تبلورت وثبتت بعد في زمنه^(٢).

وقد قال عنه تلميذه الزهري فيما بعد «كان عروة بحراً لا يكده الدلاء»^(٣).

ولعل هذا الوصف ينطبق فعلاً عليه، وقد تناول بالكتابة الأحداث المتعلقة

بـ:

١ - بعث الرسول، ونزول الوحي، وبداية الدعوة وموقف قريش من المسلمين.

٢ - الهجرة إلى الحبشة وأسبابها

٣ - ازدياد مقاومة قريش للدعوة، وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

٤ - ثم تحدث عن المغازي.

٥ - ورسائل البنى إلى الجهات المختلفة.

٦ - ألفترة الأخيرة من حياة الرسول.

(١) عن صلته بالأمويين - انظر:

ابن خنكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٢.

(٢) الإسناد - يقصد به ذكر سلسلة الرواية أو المحدثين أي مصدر المعلومات.

فقد أدخل هذا عنصر البحث والتحري والتدقيق في الروايات، وبالطبع كان أساساً هاماً للرواية التاريخية والبحث السليم.

(٣) الأغاني (طبعة دار الكتب) ج ١ ص ٨٩ ٩٢

ولم يقتصر عروة على المغازى بل تعرض لفترة الخلفاء الراشدين، فتحدث عن حروب الردة فى خلافة أبى بكر، وعن حروب الشام، وعن مواضيع اخرى جاءت فى رسالة عبد الملك بن مروان له.

ويختلف تناوله لهذه الاحداث، فأحياناً لا يعدو الأمر إشارات عابرة، وبعض الأحيان يأتى بتفصيلات.

واتبع عروة أسلوب أهل (الحديث) فى كتابته، ومكنته منزلته، وصلاته الإجتماعية من أخذ الرزايات والمعلومات من منابعها.

وقد أورد بعض كتب الرسول إلى الجهات المختلفة، وفى هذا اتجاه إلى ما عرف فيما بعد (بالتوثيق) فى الكتابة التاريخية. كما استشهد بالآيات القرآنية. وكان أحياناً يورد بعض الشعر على لسان المشتركين فى الأحداث.

ويتميز أسلوبه بالسلامة، والبعد عن المبالغة، وكان يمهّد للحادثة بمقدمة.

وهكذا جمع عروة ما هو متداول عن الأحداث التاريخية المرتبطة بالمغازى وأسهم فى وضع بعض الأسس التي تقوم عليها الدراسة التاريخية لهذه الفترة الهامة فى تاريخ الإسلام.

وقد أورد كل من الطبرى^(١)، والبلاذرى^(٢) وكذلك الذهبى^(٣) بعضاً مما كتبه عروة عن المغازى.

أما عن الزهرى، أبى بكر محمد بن مسلم بن عبدالله بن عبدالله بن شهاب - فهناك أيضاً اختلاف، فى تاريخ ولادته. لكن يرجح أنه ولد عام ٥١ هـ (٦٧١م) وتوفى عن ٧٢ سنة فى عام ١٢٤ هـ (٧٤٢م). وقد أخذ عن أعلام الحديثين الذين يقول عنهم (إنهم بحور للعلم)، ومنهم أستاذه عروة بن الزبير

(١) تاريخ الامم والملوك

(٢) فتوح البلدان.

(٣) تراجم رجال روى عنهم محمد ابن اسحق.

ويذكر أنه قام ببحث واسع في المدينة عن أحاديث الرسول وأصحابه. ساعدته في ذلك مكانته الاجتماعية، وذاكرته القوية، وإستعانته بالكتابة فقد كان يكتب كل ما يسمع من أحاديث.

ويقال «إنه كان يغشى المجالس، ويوزر الأشخاص لهذا الغرض. ذكر عنه الذهبي: «إنه كان يأتي المجالس من صدورهم ولاياتها من خلفها، ثم يأتي الدار من دور الأنصار فلا يبقى شاباً ولا كهلاً ولا عجوزاً ولا كهلة إلا ساء لهم، حتى يحاول ربات الرجال»^(١).

واشتهر الزهري كمحدث وفقهه بالإضافة إلى كونه مؤرخاً - قال عنه الطبري: «كان محمد بن مسلم الزهري مقدماً في العلم بمغازي رسول الله ﷺ، وأخبار قريش، ورواية لأخبار رسول الله ﷺ وأصحابه»^(٢).

وقد وصلتنا مقتطفات من مغازي الزهري في ابن اسحق، والواقدي. والطبري والبلاذري.

وقد حاول الدوري أن ينظم هذه المقتطفات. وتسلسلها تاريخياً ليصل إلى تصور تقريبي لهذه المغازي^(٣).

ويتضح منها أنه كتب عن:

بداية الخليقة، وأخبار الأنبياء الماضين، والأحداث التي شهدتها النبي قبل الإسلام، وانتقل إلى دور الرسالة فتحدث عن الفترة المكية من بدء نزول الوحي إلى بيعة العقبة، ثم الفترة المدنية من الهجرة فالمغازي والسرايا، ثم رسائل وسفارات الرسول إلى هرقل وكسرى ثم يشير إلى حجة الوداع، والمرض الأخير للرسول ووفاته وأثر ذلك.

(١) تراجم رجال روى عنهم محمد ابن اسحق ص ٦٩

(٢) الطبري المنتخب من كتاب ذيل المنيل (المطبعة الحسينية) ص ٦٧

(٣) الدوري: مرجع سابق ص ٨٢ وما بعدها.

وهكذا أعطى الزهري إطاراً واضحاً للسيرورة النبوية وقد راعى بصورة عامة التسلسل التاريخي للحوادث، وذكر بعض التواريخ - مثل تاريخ الهجرة، وتواريخ بعض الغزوات

وهو يهتم إلى حد كبير بالإسناد - وقد خطا خطوة هامة نحو الأخبار التاريخية المتصلة - حين اتخذ الإسناد الجمعي. وذلك بجمع عدة روايات في قصة متسلسلة يتقدمها رجال الأسانيد، وهو كذلك يكثر من ذكر الآية القرآنية التي تتصل بما يورد من أخبار.

وأسلوبه يتصف بالصراحة والبساطة، والتركيز، وقلما يلجأ للمبالغة، وكان يعتمد على الأحاديث، بينما نظر للقصص الشعبي على أنه مادة للتسليية فحسب^(١).

ويورد الزهري أحياناً بعض الأشعار المتعلقة بالأخبار التي يذكرها، وبالإضافة إلى المغازي - كتب الزهري في الإنساب، وتاريخ صدر الإسلام. كما تناول فترة الخلفاء الراشدين فتحدث عن إختيار أبي بكر خليفة، وعن فترة خلافته، كما تحدث عن إنشاء ديوان الحند في عهد عمر بن الخطاب

وتحدث عن بعض الأحداث في عصره، وعن خلافة عثمان ثم تحدث عن الفتنة والانقسامات في المدينة، فنهاية عثمان وانتخاب علي، وعن النزاع بين علي ومعاوية ووقعة الجمل، ومعركة صفين، والتحكيم، والأحداث التي أدت إلى تقارل الحسن بن علي - ويبدو أنه لم يعالج الفترة الأموية

وهكذا تظهر أهمية الزهري - بالإضافة إلى ما كتبه عن السيرة النبوية في إلقاء الضوء على الأحداث الهامة الخاصة بظهور الأحزاب السياسية، والجدل بينها فيما يتعلق بمسألة الخلافة - هل هي بالانتخاب أم الوراثة، والنظام الإداري، والأحداث الخاصة بالنزاع بين علي ومعاوية وغير ذلك من أحداث الأمة الإسلامية في ذلك العصر.

(١) الذهبي - مرجع سابق ص ٧٣ و٧٤.

وهو بذلك يعرض لنا لإحداث الهامة - على الأقل - من وجهة نظر رجل من البارزين من رجال المدينة.

ويقال أن الزهرى ذهب إلى دمشق لفترة في زمن يزيد بن عبد الملك، وأن هشام بن عبد الله الملك جعله مؤدياً لولده، وطلب إليه أن يملأ الحديث لفائدة أولاده، «وخصص كاتبين ليصحباه ويحضرا دروسه، وليدونا أحاديثه، وقد وجدت جل تأليفه في خزانة كتب البلاط الأموي»^(١).

وهكذا يُعتبر الزهرى أول من وضع الخطوط الرئيسية لكتابة السيرة النبوية على أساس دراسة جديدة، كما يذكر له دوره في ضبط أحاديث المدينة ورواياتها. فإذا كان عمرو بن الزبير رائد علم التاريخ فإن الزهرى مؤسس المدرسة التاريخية في المدينة.

من هذا العرض نستنتج ما يلي:

١ - أن أكثر كتاب السيرة والمغازي كانوا من أهل المدينة المنورة، لأن أكثر أحداث السيرة من تشريع مدني، ومغاز كان والنبى ﷺ فيها، وكان من حوله من أصحابه أعرف الناس بتلك الأخبار، وبدأ تدوين هذه الأحداث في المدينة.

٢ - كانت السيرة والمغازي جزءاً من الحديث يرويه الصحابة، وكان من بعدهم يرويها عنهم.

٣ - سلك كتاب السيرة والمغازي مسلك المحدثين الأولين فمنهم من كان يُعنى بالإسناد، ومنهم من لم يتهج هذا المنهج باستمرار.

٤ - كل ما ينطبق على الحديث من ناحية تقسيمه إلى أقسام باعتبار صحته، أو ضعفه ينطبق على السيرة والمغازي فيمكن تقسيم هذه الكتابات على نفس المنهج وبنفس المقاييس.

(١) الذهبي: مرجع سابق، ص ٧٢.

ثالثاً - المدرسة العراقية (فى الكوفة، والبصرة، وبغداد):

نشأت مدرسة التاريخ فى العراق فى الكوفة والبصرة وبغداد مستقلة، ومن جذور تختلف عن جذور مدرسة المدينة.

وفى الوقت الذى كانت فيه المدينة - مهد الإسلام - المركز الاول لإتجاه أهل الحديث - كانت البصرة والكوفة مقر الحاميات، القبلية، وموطن التقاليد القبلية.

وكان ألتنافس فى البداية بين البصرة، والكوفة شديداً ثم دخلت (بغداد) التى أنشأها أبو جعفر المنصور واتخذها عاصمة الخلافة - فى المنافسة - فكانت العصبية للقطر ثم للبلد.

فالعراقيون يتعصبون للعراق على الحجاز، والحجازيون يتعصبون للحجاز على العراق، ثم فى القطر الواحد، يتعصب الكوفيون للكوفة على البصرة، والبصريون للبصرة على الكوفة، والبغداديون لبغداد على البصرة والكوفة وغيرهما ونحو ذلك.

ف نجد مثلاً الخطيب البغدادي - يؤلف كتاباً عن «تاريخ بغداد» - يضمنه تراجم علمائها وزهادها وأدبائها نحواً من ٧٨٣١ ترجمة^(١).

وفى الوقت الذى أهتم فيه الرواة بالحوادث، والأمور العامة - لا بالأخبار القبلية الخاصة - إتجه الإخباريون الإتجاه القبلى.

وقام الإخباريون والمؤرخون الأوائل فى العراق، بجهود كبيرة لجمع الروايات القبلية هناك، وعندما انتقلت الخلافة إلى (بغداد) إحتل العراق المركز الأول فى التاريخ الإسلامى - وصار الإهتمام بتاريخه وأحداثه فى المرتبة الأولى.

لكن إلى جانب إهتمامهم الخاص بشؤون العراق أبدى الأخباريون عناية بشؤون الأمة.

(١) أمين، أحمد: ضحى الإسلام - مرجع سابق ص ٨٢ وما بعدها.

ولذا نلاحظ لديهم فكرة وحدة تجارب الأمة واتصالها، كما نرى فكرة ترابط التاريخ العربي، فقد إهتم الأخباريون بأخبار الشام، والجزيرة العربية بالإضافة إلى أخبار العراق.

ف نجد سيف بن عمر يتحدث عن الردة، والفتوحات، وفي الوقت الذي يعتمد فيه على (روايات كوفية) نجده يكمله ببعض الروايات المدنية، والشامية، فهناك إذاً فكرة الدولة، والتأكيد على حقوق الإمام والولاء والطاعة له.

وهكذا يمكن القول بأن الإخباريين لم يهبطوا في كتاباتهم إلى مستوى حزبي، ومع ذلك فقد كان للإقليمية والقبلية أثرهما في الكتابات التاريخية عندهم، فبعضهم أظهر في كتاباته ميولاً علوية، وميولاً عراقية الخ.

هذا على أن الإخباريين إستخدموا في كتاباتهم وثائق رسمية، من رسائل ومعاهدات، كما أن بعضهم إضطر لذكر الرويات المعارضة أو المقابلة للرواية التي أوردتها، وكان لهذا بالطبع أثره في وضع أساس الطريقة النقدية في التاريخ.

وهكذا تركزت كتابات المؤرخين في هذه المرحلة على الموضوعات التي كانت تشغل بال العرب - أو ما نطلق عليه اليوم (موضوعات الساعة) - كالردة، والفتوحات، والشورى، والفتنة، وتحتل المعارك، والمواقف بين العلويين والأمويين مكاناً بارزاً من كتاباتهم.

وتتميز أسلوب الإخباريين بالسهولة وكانوا يوردون الشعر خلال كتاباتهم عن المعارك مستشهدين به.

على أن الصراع الثقافي الذي إحتدم مع الشعوبية، من جهة، وتوسع تيار الموالى من جهة أخرى، والإنقسامات السياسية التي إحتاحت الدولة الإسلامية،

والمنازعات القبلية، هيأت فرصة لدراسات أكثر دقة، فوجهت جهود لجمع الروايات التاريخية وغربلتها^(١).

هذا وقد أدخل اللغويون أسلوب النقد الداخلي للمواد التاريخية إلى جانب النقد الخارجي للمصادر والرواة^(٢).

وقد حظى الشعر على وجه الخصوص بعناية خاصة واهتمام ومحاولة للتمييز بين الشعر الصحيح والموضوع.

كما تنوعت موضوعات الكتابة بتنوع وتعدد المشكلات السياسية والاجتماعية، فأثيرت مسائل تتعلق بالصلة بين قريش والقبائل العربية الأخرى، وغير ذلك من المشكلات، ومسائل تتعلق بالأدب العربي، واللغة، وظهر التأثير الفارسي بتناول تاريخ الفرس المتصل بتاريخ العرب.

(١) بدخول الشعوب - غير العربية - في الإسلام ومشاركتها في الحركة العلمية وغيرها - أصبح هناك عنصران هما العرب، والموالي - وقد ذكر ابن خلدون أن أكثر العلماء كانوا من الموالى، وأدى هذا إلى إنتشار نزعة شعوبية في القصص والتاريخ، والشعوبية من القضايا الهامة التي شغلت الكتاب والمؤلفين العرب وترجع إلى الصراع الاجتماعي العنصري - فهناك من يدافعون عن التفوق الفكري العربي وحجتهم تستند إلى أن الرحي الذي نزل على النبي العربي الكريم هو أساس كل معرفة حقيقية وعلم صحيح - بينما يرى الفريق الآخر من الشعوب التي دخلت في الإسلام أن الحضارات الأخرى حضارات أسما وأرقى كحضارة الفرس مثلاً - وقد عد (ابن المقفع) مثلاً شعوبياً، وراجت بعد ذلك هي الفن الرابع الهجري نظرية أخرى هي نظرية (الحكمة الأبدية) حاول أصحابها التوفيق بين الفريقين المتصارعين فكرباً وحضارياً

ولعل ابن مسكويه في كتابه الفارسي (جاويدان خوند) أي الحكمة الأبدية يمثل هذه الفكرة فهو يحاول أن يثبت أن جميع الحضارات اليونانية، والفارسية، والهندية، والعربية الإسلامية هي تجسيد لهذه الحكمة الأبدية.

أدور الموالى في العلم أنظر:

امين، أحمد: فجر الإسلام - مرجع سابق ج ١ ص ١٨٣.

وعن الشعوبية والصراع بين الحضارات أنظر:

روزنتال، فرانز: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي (ترجمة د. آيس مرنجه) ص

١٨٩، ١٩٠.

(٢) عز، النقد الداخلي، والنقد الخارجي - أنظر: الفصل الثامن من كتابنا هذا (نقد الأصول التاريخية)

وشهد القرن الثالث الهجرى مرحلة جديدة فى تطور الكتابة التاريخية عند العرب، وتميز هذا القرن بوفرة المادة التاريخية، من كتب وصادر وروايات فى الأمصار المختلفة.

كما برزت ظاهرة أخرى تتمثل فى (الرحلة فى طلب العلم)

وفى سبيل جمع وتصنيف الأحاديث. وترتبت عل هذا نتائج بالغة الأهمية من ناحية تبادل التأثير وتبلور فكرة الكتابة التاريخية للدعمة بالأسانيد.

وظهر فى هذا العصر من أنمة المؤرخين عدد كبير نذكر منهم:

ابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ - ٨٨٢م): المعارف.

البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢م): فتوح البلدان وأنساب الأشراف.

اليعقوبى (٢٨٢ هـ - ٨٩٨م): الأخبار الطوال.

الطبرى (ت ٣١٠ هـ - ٩٢٣م): تاريخ الأمم وللوك - وجامع البيان فى

تفسير القرآن.

ولو تأملنا كتابات هؤلاء المؤرخين نلاحظ ما يلى:

١ - ابن قتيبة - يسد حاجة قراء عصره إلى تاريخ شامل موجز، فهو يجمل خبرة الأمة، كما يُعبر عن النظرة العالمية للتاريخ، ويجابه الحركة الشعبوية فى الميدان الثقافى.

٢ - أما البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان - فهو يعبر عن الواجب الأول للمسلم وهو الجهاد، وعن دور العرب التاريخى، بينما فى كتابه الثانى «أنساب الأشراف» يعالج موضوعا يتعلق بالأرستقراطية العربية - مركز الثقف فى المجتمع العربى فى نظره.

٣ - أما اليعقوبى - فيكتب تاريخاً عاماً، فهو يمثل النظرة العالمية

للتاريخ - وإن كانت تبدو في ثنايا كتاباته ميوله العلوية الشيعية مثل كثيرين من كتاب المدرسة العراقية.

٤ - وفي كتاب (الأخبار الطوال) للدينوري - يظهر تأثير العمراق وفارس على الكتابة والأدب العربي، ويعطي تفسيراً تاريخياً لإشتراك العرب والفرس في السلطة في العصر العباسي.

٥ - أما الطبري - فبالإضافة إلى الناحية الروحية الدينية التي تتمثل في تفسيره للقرآن - فإنه يمثل النضج الذي وصلت إليه الأمة، والمثقفون على وجه الخصوص من إمامهم بالأحداث الهامة - فهو يعبر عن فكرة وحدة تجارب الأمة. وكذا تكامل الرسالات، فالتاريخ في نظره تعبير عن مشيئة الله.

وعلى كل تميزت كتاباتهم جميعاً بالدقة ومحاولة تحدى الحقيقة، وقلة التحريف، وعدم الإنحياز، والإهتمام بالإسناد، ونقد المصادر، والرجوع في كثير من الأحيان إلى السجلات، والأوراق الرسمية، أو ما يعبر عنه اليوم (بالبوثائق الأصلية)

كما تتسم كتاباتهم بالتركيز، ونلمس فيها الإلتزام بخطوط واضحة في التفكير والكتابة.

رابعاً - مدرسة التاريخ في مصر والشام:

تكونت في مصر والشام مدرسة أول أساتذتها من الصحابة الذين رحلوا إلى هذه الأقطار، ثم أخذ عنهم التابعون، وأخذ عن التابعين تابعوهم. وقد عُد هؤلاء الصحابة مصريين أو شواماً لنزولهم هذه البلاد وإستيطانها.

ومن الشخصيات البارزة في تاريخ مصر العلمي (يزيد بن أبي حبيب الأزدي) اشتهر بالناحية التاريخية، فيروى عنه الكثير مما ذكره عن فتوح مصر وقتنها وحروبها^(١).

(١) أمين، أحمد: ضحى الإسلام - مرجع سابق ص ٨٧ ومابعدها.

وكان مسجد عمرو بالفسطاط مركز الحركة العلمية في مصر كما هو مركز الحركة الدينية. وقد بدأ تاريخ مصر وأخبارها في شكل حديث فالذي بدأه هم (المحدثون).

والمؤسس الأول لمدرسة مصر للتاريخ الإسلامي في مصر هو عبد الله ابن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ)، وتبعه كثيرون نذكر منهم الإمام الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ)، عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)^(١)، وأبو عمر الكندي (ت ٣٥٠هـ)^(٢)، والحسن بن زولاق^(٣).

وإلى جانب الفسطاط إشتهرت مدرسة (الإسكندرية)، ولعل ذلك كان إمتداداً لمدرسة الإسكندرية قبل الفتح، والمعروف أن الحركة الإسلامية ظلت لفترة محصورة في الغالب في الفسطاط والإسكندرية حتى انتشر المسلمون في البلاد، وتغلغوا فيها عقب سنة ٢١٦هـ، ولعبوا دوراً هاماً فأصبحت مصر دولة رائدة لها مكاتنها التاريخية في العالم الإسلامي^(٤).

وفيما يتعلق بالشام. فقد نزل بها كثير من الصحابة والعلماء وحدثوا هناك عن رسول الله، وعلموا الناس الأخيار والأحكام - ويذكر عن أبي مسلم الخولاني قوله «دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي ﷺ»^(٥)

ومن إشتهر من علماء ومؤرخي الشام - الأوزاعي - (عبد الرحمن بن عمرو) نزل دمشق ثم بيروت ومات فيها سنة ١٥٧ هـ - قيل إنه اشتهر في

(١) صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب والاندلس

(٢) مؤلف كتاب الولاة والقضاء - تناول تاريخ مصر من الفتح العربي إلى وفاة محمد الأخشيد

(٣) صاحب كتاب العيون الدمع في حلا دولة بني طنج، تحدث فيه عن تاريخ الدولة الأخشيدية

(٥) ضحى الإسلام ص ٩٦

الحديث والفقه، وكان له مذهب كمذهب مالك، وأبى حنيفة، وقد عمل أهل الشام بمذهبه حيناً، وانتشر مذهبه أيضاً بالأندلس لرحيل عدد من التابعين له المعتنقين لمذهبه إلى الأندلس، ثم حل محل الأوزاعي الشافعي في الشام ومذهب مالك في الأندلس.

على كل هو علم من أعلام الشام نذكره على سبيل المثال فقط.

وقد اشتهر الكتاب والمؤرخون في الشام بمعرفتهم للسيرة وبالكتابة في فتوح الشام وتاريخه.

والأوزاعي له كتاب تناول فيه شرح النظام الحربي للمسلمين، وكانت هذه الكتب والأحاديث في الفتوح وما إليها نواة كتب (تاريخ الشام) كما هو الشأن في تاريخ مصر.

ولما جاء العهد الأموي كانت دمشق حاضرة الدولة الإسلامية، وكان الخلفاء والأمراء عرباً خالصاً في دمهم وفي ذوقهم، أحب شيء إليهم التسامر بأحاديث العرب وأيامهم وأخبارهم.

وهكذا أصبحت الزعامة العلمية في العصر الأموي للشاميين أصلاً، أو موطناً، أو وفادة، وظل الأمر كذلك حتى جاء العصر العباسي فتحول الأمر إلى بغداد مع تحول الحاضرة من دمشق إلى بغداد^(١).

(١) في مجال الحديث عن انتقال مراكز العلم تبعاً لتغيير الركن السياسي للدولة اشير إلى مدرسة الإسكندرية وانتقالها وتطوراتها إلى بلدان مختلفة مع ملاحظة أن اسم هذه المدرسة لم يكن يمثل معهداً رسمياً بل مراكز للدراسات التي كان ولاه الأمور يديرونها عنايتهم - فقد نقلت بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى إنطاكية، لكن بقيام الخلافة العباسية فقدت سوريا ومدنها أيضاً أهميتها فنقلت المدرسة المذكورة من إنطاكية إلى حيران في عهد المتوكل واستقرت أخيراً في بغداد - انظر البحث القيم المنشور في مجلة أكاديمية العلوم (اركيون) الكاتب ماكس مايرهوف عن نهاية مدرسة الإسكندرية تبعاً لبعض المؤلفين العرب.

Meyerhof, Max: La fin de L'Ecole d'Alexandrie d'après quelques auteurs arabes (Archeion 1933). PP. 1-16.

ولابد من الإشارة لما كان بالشام من مدارس فقهية وغيرها لتعليم القانون الروماني، وأشهرها مدرسة (بيروت) - على كل لم يعد للشام في العصر العباسي منزلتها العلمية الأولى فقد خرج العلماء والكتاب من الشام إلى العراق فتحوّلت الزعامة إلى العراق.

خامسا - مدرسة التاريخ في قرطبة (الأندلس): (١)

حكم العرب الأندلس في الفترة من ٩٢ هـ إلى ٨٩٧ هـ (٧١٠ م إلى ١٤٩٢ م) - ومنذ فتح العرب الأندلس على يد موسى بن نصير ومولاه طارق ابن زياد صارت هذه البلاد ولاية إسلامية تابعة لدمشق (من ٩٢ هـ إلى ١٣٨ هـ) ثم أصبحت دولة مستقلة عن خلافة المشرق بحكمها أمراء وخلفاء من بنى أمية منذ عهد عبدالرحمن بن هشام بن عبد الملك (١٢٨ - ٣٩٩ هـ). (٧٠٥ - ٣١ م). وفي عهد الخليفة هشام المؤيد، أصبح صاحب السلطان الفعلي هو الحاجب، وذلك ما يُسمى في تاريخ الأندلس باسم (الدولة العامرية)، ثم كانت الفتنة البربرية، واقتسم الطامعون مدن الأندلس وحكمها (ملوك الطوائف) وضاعت سيادة قرطبة بذهاب الخلافة الأموية. وفي عهد دولتي المرابطين والموحدين صارت بلاد الأندلس ولاية تابعة للمغرب واخر من حكم الأندلس من المسلمين بنو الأحمر في غرناطة (٢).

وانتشرت بالأندلس المكتبات في قرطبة، وفي غيرها من المدن الهامة، وقيل إنه كان بالخزانة الملكية بقرطبة وحدها أكثر من ريعمئة ألف مجلد (٣). وقد

(١) لمن يريد التوسع في دراسة (التاريخ عند عرب الأندلس) يرجع إلى:

- بالنشيبا: تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة حسين مؤنس).

- العبادي، احمد مختار: التراث العربي الأيباني (عالم الفكر - المجلد الثاني - العدد الأول).

(٢) لمن يريد التوسع في الدور الذي لعبه المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين (بطل معركة

الزلاقة ٨٦٠ هـ) ثم دور الموحدين في الأندلس - انظر:

الجمل، شوقي: المغرب العربي الكبير.

(٣) الروميلي: العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي (ترجمة د. عبدالحميد النجار، د

محمد يوسف موسى) ص ٣٤٥

اتسمت الحياة الثقافية منذ البدء بالإعتماد على المشرق الإسلامى وتقليد أهله .
فهاجرت كتب المشاركة إلى الأندلس بكثرة (١).

ومع ذلك فإن أوضاع الأندلس نفسها الممثلة فى الصراع المستمر
الداخلى والخارجى - أثرت فى كتابات المؤرخين وجعلتهم يشعرون بأن للأندلس
تاريخاً يستحق التخليد . ويتمثل الصراع الخارجى فى الغزوات والمرابطة
والجهاد فى الثغور . وأما الصراع الداخلى فيتمثل فى الفتن وثورات الطامحين
والمندشقين عن طاعة قرطبة

ويكفى أن يراجع القارئ كتاباً فى التاريخ الأندلسى حتى يجد فيه
التاريخ مرتباً على حسب سنوات الغزو .

ومن أوليات صور هذا التخليد أن نظم الشعراء الأراجيز التاريخية من
ذلك أن (يحيى بن حكم الغزال) نظم قصيدة طويلة فى «فتح الأندلس» ذكر فيها
السبب فى غزوها ، فصل فيها الوقائع بين المسلمين وأهلها ، وعدد الأمراء عليها
وأسماءهم - كما أن (تمام بن عامر الثقفى) له أرجوزة فى ذكر إفتتاح الأندلس
وولاتها من وقت دخول طارق بن زياد إلى لحر أيام الأمير عبد الرحمن بن
الحكم .

ونظم ابن عبد ربه أرجوزة فى عزوات الإمام عبد الرحمن الناصر من سنة
٢٠١ إلى ٢٢٢ هـ .

وقد أهتم مؤرخو الأندلس بوصف القلاع الحصينة والحروب البحرية
والأحداث الداخلية وغير ذلك من تاريخ هذه البلاد . ولعل ابن حزم (ت ٥٦ هـ)
فى رسالته بعنوان «بيان الأندلس وذكر علمائه» التى كتبها رداً على إتهام
الحسن بن محمد اليمنى القيروانى أهل الأندلس بالتقصير فى تخليد أخبار
علمائهم - يعطى صورة عن بعض من برز من مؤرخى الأندلس (٢)

(١) عباس احسان: تاريخ الأدب الأندلسى ص ٢٨ (عصر سيادة قرطبة)

(٢) نفس المرجع سابق ص ٢٩١ (نقلا عن المقرئ فى فتح الطبيب)

فيذكر العديد ممن الفوا في تاريخ الأندلس^(١).

وقد اشتهر من مؤرخي الأندلس كثيرون نذكر منهم:

- أحمد بن محمد الرازي التاريخي (ت ٤٤٤هـ): مسالك الأندلس وموانئها. وأمهاة مدنها وأخبارها.

- ابن الفرخي، أبو الوليد (ت ٤٠٣هـ): تاريخ العلماء والرواة للعلم الأندلسي.

- أبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ): الدرر في اختصار المغازي والسير.

- ابن حيان القرطبي (٢٧٧ - ٤٦٩هـ / ٩٨٧ - ١٠٧٦م) وقيل إنه الف نحو خمسين كتابا أشهرها «المتين» في ستين جزء، و«المقتبس في تاريخ الأندلس».

- أبو عبدالله محمد بن أبي الحميري الأندلسي (ت ١٠٩٥م) وأصله من قرطبة أيضا، ومن مؤلفاته «جذوة المقتبس» وهو عن تاريخ علماء الأندلس

- وأسان الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ ١٣٧٤م)، وكان وزيراً لأبي الحجاج يوسف سلطان (غرناطة) وله كتاب «الإحاطة في تاريخ غرناطة». الذي أخذ عنه المقرئ^(٢)

- وأبو العباس أحمد المقرئ (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١م) أصله من المغرب وهو صاحب كتاب «نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» - تحدث فيه عن تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

(١) المرجع السابق ص ٣٠٣ وما بعدها.

(٢) كان ابن الخطيب عالما اهتم على الأخص بالتاريخ، صنف تواريخ كثيرة لخلفاء المشرق والأندلس، وأفريقية مثل كتاب: الحل المرموقة، والحكمة البدرية في الدولة الناصرية، وله أيضاً كتابات عن أخبار الرحلات وأوصاف المدن الأندلسية يتعرض فيها للعلماء الذين لقيهم، والأماكن التي زارها، ويقال أن كتبه تبلغ الستين لكن لم يبق لنا منها إلا نحو الثلث، طبع بعضها طبعات تختلف من حيث دقتها ومحاولة تحقيقها.

هذا وقد اشتهر عدد كبير من الأندلسيين بحب الرحلة والتجوال في البلاد الإسلامية وغيرها، ولهم رحلات مشهورة أسهمت في كشف النقاب عن تاريخ العرب وحياتهم في العديد من الاقطار التي انتشروا فيها بالإضافة إلى التعريف. بأماكن لم تكن العالم المتحضر يعرف عنها شيئاً. نذكر منهم على سبيل المثال الرحالة ابن جبير (٥٤٠ - ٩١٤هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧م) صاحب الرحلة المشهورة باسمه - كذلك يذكر في هذا المجال ابن بطوطة، وابو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد ابراهيم اللواتي الطنجي المولود في طنجة سنة ١٣٠٣م والمتوفى بمراكش سنة ١٣٧٧م، وكذلك ابن الوزان، الحسن بن محمد (ليون الأفريقي) وغيرهم كثيرون يضيق المجال عن حصرهم.

هذا بالإضافة إلى شهرة الأندلسيين في الفلسفة. وتكفي الإشارة إلى الفيلسوف ابن رشد^(١)، وابن زهر، وابن طفيل الذي ترجمت كتبه إلى عدد كبير من اللغات الأوربية، وابن باجة، وابن البيطار، وابن فرناس، وابن الخطيب، والفيلسوف العالمى ابن خلدون، والعالم الصوفى ابن عربى، وغيرهم من الأعلام^(٢).

وقد نافست قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس بغداد في مكباتها، واستهواه العلماء للمكث بها فقد جاء إليها كثير من العلماء من البلاد العربية ولاسيما عندما أخذ بنو أمية في مجارة خلفاء بنى العباس في الافاضة على العلماء والمؤرخين - ويكفى أن نشير إلى أن معاهد العلم في قرطبة، وأشبيلية،

(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن رشد - ولد في سنة ٥٢٠هـ (١٢٦م) في أسرة عربية أصيلة، استقرت بالأندلس واشتهرت بحب العلم، وقد عاش في عهد الدولة الموحدية التي غلبت في شمال أفريقيا وبلاد الأندلس وللمزيد من التفاصيل أنظر:

قاسم، نكتور محمود: فلسفة ابن رشد وأثرها في التفكير الغربى وهي محاضرة القبت بنادى الخريجين بالخرطوم في ١٤ فبراير ١٩٦٧ وطبعت بعد ذلك.

وظليطة؛ ومرسيه وغيرها من بلدان الأندلس وكان لها الفضل في نشر نور العلم في سماء أوربا ذاتها^(١).

وكانت المدارس العليا بقرطبة ومكتبتها العظيمة قبله طلاب العلم في كل أنحاء الشرق والغرب - وقد جمع الخليفة الحكم الثاني - وهو من أشهر علماء عصره - لمكتبة قرطبة نصف مليون من الكتب القيمة جمعها له عشرات من رجاله. وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عاماً^(٢).

الطريقة التي تناول بها العرب التاريخ

يمكن من الجولة السابقة التي تناولنا فيها الراحل والأطوار التي مرت بها كتابة التاريخ عند العرب أن نرسم الخطوط العريضة لطريقتهم في كتابة التاريخ.

فقد كان الإهتمام قبل الإسلام بالأيام والانساب، ولذا كانت الروايات الشفوية، والقصص والأخبار تعتبر ملكاً مشتركاً للعائلة أو القبيلة، ولم تكن من إختصاص الأفراد.

وكان طبيعياً أن تتسم بالمبالغة، والفخر وغير ذلك مما يلائم الأوضاع الاجتماعية السائدة لديهم حول الحسب والنسب.

(١) خفاجة، محمد عبدالمنعم: قصة الأدب في الأندلس، ص ٢٨

ولن يريد التوسع في دور العرب، للعلمى في الأندلس يرجع إلى

- بالتحديد: تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة حسين مؤنس)

- العبادي، أحمد مختار: الإسلام في أرض الأندلس (عالم الفكر - المجلد العاشر - العدد

الثاني)

(٢) الحكم الثاني هو تاسع الخلفاء الأمويين في الأندلس وكان عصره عصر ازدهار ونهضة.

غدت فيه جامعة قرطبة منارة للعلماء والباحثين، وكان حجة في الأدب والتاريخ، يقال إنه

قرأ الأربعةائة ألف كتاب التي كانت بمكتبته وعلق عليها جميعاً

واستمر هذا الوضع بعد ظهور الإسلام. لكن تركز الاهتمام بعد ذلك على دراسة سيرة الرسول وسير اتباعه، والكتابة في المغازي والغزوات.

وكان كتاب السيرة والمغازي يجمعون الروايات ويرتبونها حسب الأحداث، والسنين بعد التقديم لها بمقدمة في التاريخ القديم قد يذهبون فيها إلى الطوفان، أو خلق الإنسان^(١).

وقد يسوقون الحوادث كقصص موتبة حسب تاريخها، ويدونونها مستندة إلى مصدرها الأصلي.

ومن ثم برز الأسناد كعامل هام في الكتابة التاريخية في هذه الفترة - فقيمة الرواية أو الحديث تتوقف على مدى سلامة الأسناد وتسلسله^(٢).

وكان النقد أو (الجرح والتعديل) كما كانوا يطلقون عليه منصبا على الرواة.

وارتبط علم التاريخ من البداية بعلم الحديث، وتأثر به، فقط بدأ التاريخ كفروع من فروع الحديث، واتبعوا طريقة علماء الحديث في تدارس أمهات كتب التاريخ من حيث تلاوتها وتكرار سماعها، وإجادتها.

حدث ذلك مثلا في مغازي الواقدي وأمثاله من كتب الأصول^(٣).

وقد تعرض كتاب السيرة والمغازي في هذه الفترة لما تعرض له المحدثون من رواة الحديث وكتابه من تحييص ونقد وجرح في ضوء النظر إلى الأئمة، انيد ومصدرها

(١) اتجه هذا الاتجاه: الطبري، وابن مسكويه، وابن الأثير، وأبو الفداء وغيرهم
(٢) يشير (روزنتال) إلى أن علماء الحديث والفقهاء كانوا يهتمون بالدرجة الأولى (بالأسانيد)، وكان لذلك اثره في الكتاب والمؤرخين، حتى أن السيوطي (ت ١٥٠٥م) يقول «إنه ليس في جميع مؤلفاته الكثيرة خبر أو رواية أو رأي لم يدعمه بالاستشهاد» انظر - روزنتال.

برائز: مرجع سابق ص ٩١٧

(٣) الهادي، عبدالحميد، مرجع سابق ص ٤٤

ويضع ابن خلدون مقاييس لذلك فيذكر أن الأمر يرجع إلى «كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة...».

ويذكر «أن أهل الحجاز اشتهروا بالدقة في الإسناد لاستيادتهم في شروط النقل من العدالة، والضبط وتجافهم عن قبول الجهول».

كما تحدث عن أئمة الحديث - الإمام مالك، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وأمثالهم

وعلى هذا الأساس رتب ابن خلدون الحديث إلى صحيح، وحسن وضعيف، ومرسل، ومنقطع، ومتصل، وشاذ (١).

وبنفس هذا الأسلوب كانت النظرة والتقييم لكتاب السيرة والمغازي.

ولاشك في أن الاهتمام بالإسناد والنظرة النقدية لما يروى ويكتب عن غزوات الرسول وغيرها من الأحداث التاريخية، وغربة الكتاب بهدف الوصول إلى الحقيقة - وضع الأسس الأولى لعملية النقد التاريخي.

على أن ظاهراً النقد والتحليل، والتعليل، وربط النتائج بالمقدمات - أخذت تنتشر أكثر عندما تعرض المؤرخون العرب للأحداث التي امت بالدولة العربية فأضعفتها وأدت لتفككها وجعلتها مطمعا لأعدائها.

وكانت المبادئ التي أخذت تُثار في المجتمع الإسلامي دافعاً لمزيد من التفكير والبحث والكتابة.

فمشاكل الشورى، وفكرة الدولة - كما حاول الأمويون تثبيتها - والتشيع، ووضع الموالي في الدولة الإسلامية، والردة، والفتوحات ودور القبائل فيها وغير ذلك من المشكلات، والحوادث التي اجتاحت العالم الإسلامي - أتاحت مادة للكتابة التاريخية وفرصة للتحليل والتعليل.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٤ وما بعدها تحت عنوان (علم الحديث).

وأعل هذا يدفعنا لأن نحاول أن نجمل فيما يلي المؤثرات التي أثرت على الكتابة التاريخية عند العرب.

المؤثرات التي أثرت على الكتابة التاريخية عند العرب:

فى ضوء ما ذكرناه يمكن أن نجمل المؤثرات التي أثرت على الكتابة التاريخية عند العرب: وأثرت فى تطورها فيما يلي:

١ - الظروف الإجتماعية والثقافية السائدة فى شبه الجزيرة قبل الإسلام.

فقد ترتب عليها إهتمام العرب (بالأيام) و(الأنساب).

واستمر هذا الإهتمام بعد ظهور الإسلام.

وكانت (الرواية الشفوية) هى الوسيلة التى تناسب الوضع الثقافى

السائد فى ذلك الوقت - وكانت المبالغة والإشادة بالبطولات وغير ذلك مما قد لا يساير المنطق - شيئاً طبيعياً يردده الرواة وتتناقله الأجيال دون نقد أو محاولة تجريح.

٢ - الظروف الخاصة ببعض جهات شبه الجزيرة كاليمن فى الجنوب، والحيرة فى الشمال:

فقد وجدت بعض النقوش على المباني القديمة فى اليمن تحكى أخبار ملوكهم وأمورهم العامة التى تدل على نوع من الإستقرار والتقدم الإقتصادي، كما أن ما عثر عليه فى كنانس وأديرة الحيرة يصور أخبار ملوك الحيرة ويعطى فكرة عن ظروف هذه البلاد السياسية والإجتماعية

٣ - وفى المدينة المنورة - كانت دراسة سير الرسول، وسير أتباعه والمغارى والغزوات دافعاً كبيراً للكتابة التاريخية وقد اتخذت الكتابة فى هذا المحال مسار علوم الحديث من حيث الإسناد ومحاولة تحرى الحقيقة وتنقيتها

الأحداث التي تروى أو تكتب مما علق بها من تفاصيل قد تبعد بها عن واقعها.

٤ - وتأثرت الكتابات التاريخية عند العرب أيضاً بالمشكلات التي أحاطت بالامة العربية كالشورى، ومسألة الخلافة، وظهور الأحزاب السياسية، والتشيع، والشيعوية والصراع بين العرب والموالي.

٥ - وكانت فكرة الامة قد تركزت من البداية في المدينة المنورة - لكن انتشار القبائل العربية في الامصار نقل مركز الثقل إلى جهات أخرى خارج شبه الجزيرة العربية.

وبالطبع أثر هذا في الكتابة التاريخية.

٦ - ففي العراق ظهر الإهتمام من جديد بالقبلية وأمجادها، كما ظهرت مؤثرات جديدة في الكتابة التاريخية نتيجة تأثر العرب في هذه البلاد بتيارات أخرى كالفارسية.

٧ - وأدى التصادم بين المبادئ والأفكار كمبدأ القدرية أو حرية الإرادة، ومبدأ الجبر الذي تبناه الأمويون، بالإضافة إلى المشكلات المتعددة التي أثرت في ذلك الوقت إلى حركة واسعة من النقد والتحليل والتعليل ظهرت في كتابات مؤرخي القرن الثالث الهجري على وجه الخصوص.

٨ - على أن نشأة الدواوين وتطورها خاصة بعد أن إتسع نطاق الدولة العربية وتشعبت مشاكلها - أوجد سجلات رسمية، ومصادر أصلية للكتابة التاريخية استخدمها واستند إليها كثيرون من المؤرخين.

٩ - وكان إهتمام المؤرخين العرب مُركزاً في البداية على شئونهم ، وما إتصل بهم من دول، ثم اتسع هذا النطاق فشمل الدولة الإسلامية عامة، ثم إتسمت الكتابة التاريخية بشمول أكثر يمثل وحدة التاريخ وتكامله

فكتب أبو عبيدة معمر بن المثنى - أخبار الأفرس، الموالى - كما كتب غيره عن الشعوب الأخرى التي احتك بها العرب.

١٠ - ولاشك في أن المؤرخين العرب، كان لهم دورهم في إرساء بعض المبادئ الهامة في الكتابة التاريخية كالاتمام بذكر المصادر - فالمقرئى مثلا (ت ١٤٤٢م) يشير إلى المصادر الثلاثة التي رجع إليها عند تأليفه خطط مصر وهي:

أولاً - المصنفات الأدبية.

ثانياً - المعلومات التي إستطاع جمعها من أساتذته ومعاصريه من العلماء.

ثالثاً - المعلومات المبنية على إختباره الشخصى ومشاهداته.

وقد اعتبروا عدم ذكر المصادر التي أخذ عنها المؤلف نقصا - فقد أشار مثلا فخر الدين الرازى في كتاب «المباحث الأربعون في أصول الدين» إلى أن الشهرستانى في كتابه «الملل والنحل» - لم يذكر المصادر التي أخذ عنها ويذكر أن في هذا ما يسيىء إلى الحقائق التاريخية ويشوشها^(١).

١١ - وقد شدد العلماء المسلمون على ضرورة الأمانة والدقة في النقل - ففي مقدمة كتاب «معجم البلدان» يشير ياقوت إلى ذلك. ويذكر أنه نقل من المصادر بكل دقة وأمانة - ويشرح قيمة الإشارة للمصدر الذي أخذ عنه فيقول إن ذلك ييسر للمطالب إطلاعهم على آراء أهل الخبرة في ذلك العلم^(٢).

كما يشير إلى أن العالم عندما يختلف مع آخر في الرأى يجدر به أن يذكر الروايتين - روايته والرواية المعارضة^(٣).

(١) روزنتال. مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٩.

(٣) ياقوت إرشاد الأديب ج ٥ ص ٢١٥.

وعند اقتباس رواية من مصدر - مختصرة عما وردت في المصدر
الأصلى - كانوا يشيرون إلى ذلك فيقولون (انتهى ملخصاً...) (١).

وكان المؤرخون العرب يمارسون النقد بطريقة مرضية فكانوا يقابلون
بين التواريخ المذكورة في الخبر أو القصة التي يحققون في صحتها - فإذا ظهر
تباين أو تعارض حكموا بأن الخبر لا يمكن أن يكون صحيحاً بالشكل الذي ورد
عليه.

مثال ذلك ما قام به الخطيب البغدادي صاحب كتاب «تاريخ بغداد» من
فضح الوثيقة التي منح يهود خيبر بموجبها إمتيازات خاصة ولكنه أثبت أنها
مزورة وغير صحيحة (٢).

وهكذا كان للعرب دورهم في الكتابة التاريخية بمنهجها السليم.

أما أهم الموضوعات التي تناولها المؤرخون العرب فهي:

- ١ - حياة النبي ﷺ من ولادته ونشأته، ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع
المشركين وغزواته.
- ٢ - تاريخ الحوادث الإسلامية من حروب بين بعض المسلمين وبعضهم
الأخرى. (كواقعة الجمل، وواقعة صفين) وبينهم وبين الشعوب الأخرى.
- ٣ - الأنساب.
- ٤ - تاريخ الأمم الأخرى التي احتكوا بها من فرس وروم ونحوهما.
- ٥ - تاريخ الأديان الأخرى كالإهودية والنصرانية.
- ٦ - تراجم الرجال.

(١) أمين، أحمد، ضحى الإسلام ج ٢ ص ٣١٩ وما بعدها

(٢) روزنتال: مرجع سابق ص ١٢١

٧ - الاخبار - وقد أطلق على روايتها اسم (الاخباريون) مثل الهيثم بن عدى الطائى الكوفى الإخبارى.

وقد يكون أساس الحادثة التى يرونها صحيحا لكنهم عادة يكملونها من خيالهم.

وفى ختام هذا الفصل نشير إلى أنه رغم التطورات السريعة والاتجاهات الحديثة فى علم التاريخ اليوم ومناهجه فى الدول الأوربية وغيرها - فإننا يجب الاندعو لأن ننقل من هذه الدول اتجاهاتها ومناهجها فى البحث التاريخى بل أن نتفهمها ونمحصها ونطور مناهجها ومفاهيمها فى ضوء ذلك وعلى أساس الإدراك لواقعنا وتاريخنا ودورنا نحن أيضاً فى هذا المجال وما يلائمنا



obeikandi.com

الفصل الثالث

التاريخ بين العلوم الأخرى

مباحث هذا الفصل:

- تطور الدراسة والبحث التاريخي.
- (العلل المباشرة لم تعد الأسباب الحقيقية للأحداث).
- المؤرخون يبحثون في دور الإنسان في الأحداث التاريخية.
- الإختلاف على وضع التاريخ: علم أم أدب أم فن؟
- الرد على القائلين بأن التاريخ ليس علماً.
- التاريخ علم نقد وتحليل.
- العوامل النفسية التي قد تؤثر في تشكيل أحداث التاريخ.
- علم التاريخ وإهتمامه بحياة الشعوب.
- مدارس علم التاريخ.
- محاولة الزج بالتاريخ في زمرة العلوم الطبيعية وما ترتب على ذلك من أخطاء.
- أهداف تدريس التاريخ:
- دوره في تربية الفرد.
- قيمته لرجال السياسة.
- قيمته كفرع من فروع الدراسات الاجتماعية.
- التاريخ بين المنادين بقصر إهتمامه على الأحداث الساسية والداعين للتركيز على تتبع حضارة الشعوب.



رأينا كيف تطورت الكتابة التاريخية فلم تقتصر الأمر على مجرد ترديد للمقاصد أو بسط للوقائع التي كان العالم مسرحها لها - لكن أصبح من الضروري دراسة العلل المباشرة للأحداث، ثم بحث العوامل العامة التي كانت ذات أثر فى تكوينها زمناً طويلاً، فحوادث التاريخ لاتقع فجأة لكنها فى الحقيقة نتيجة سلسلة طويلة من الوقائع، وإن كانت عللها المباشرة تبدو كأنها هى الأسباب الوحيدة للأحداث..

فإذا قصرنا بحثنا مثلاً - عن أسباب الحرب العالمية الأولى - على الأسباب المباشرة، وعلى تتبع المفاوضات الدبلوماسية التي انتهت بانقضاء بعض الدول الأوروبية الكبرى على بعض - لحكمنا على أن الأقطاب الذين انتهى بهم المطاف إلى الحرب قد أصيبوا بالجنون - فالأسباب المباشرة لايمكن أن تبرر قيام الحرب - لكن الأمر فى حقيقته غير ذلك فهو يرجع لسلسلة من العلل البعيدة التي كانت فى قوتها أشد من إرادة هؤلاء الساسة^(١)

فالمؤرخ إذاً لايد أن يبحث عن هذه العلل المتعددة الخفية البعيدة فى زمنها عن زمن الأحداث ذاتها.

نعم لم يصبح المؤرخون يقتصرون فى تفسيرهم للأحداث على أن قدرة ربانية قاهرة كانت توجه مجرى الأمور، وتنظم مصير المعارك، فلا تقع أية حادثه خارج إرادتها. مع الايمان بهذه القوة الربانية العظمى - فإننا نبحث أيضاً فى دور الانسان فى الحوادث التاريخية. فلم يصبح مبدأ (القدرية) وحده مقبولاً فى تفسير أحداث التاريخ - فقد إنقضى العصر الذى كان فيه ينظر إلى الأحداث التاريخية من الوجهة اللاهوتية فحسب^(٢).

(١) لوبون، غوستاف: فلسفة التاريخ (ترجمة عادل زعيتر) ص ١٢.

(٢) ظل علم اللاهوت يطبع كل الدراسات التاريخية، ويذكر بعض الكتاب والفلاسفة ان التفسير اللاهوتى هو الذى سيطر على عقول الأوربيين من القرن الخامس إلى القرن الثامن عشر تقريباً، فالروح اللاهوتية هى الدم الذى جرى فى عروق العالم الأوربى حتى يكون، ويكرت ولم تأخذ مبادئ التاريخ اللاهوتية فى الزوال إلا بعد أن أثبت تقدم العلم ان جميع حوادث العالم خاضعة لعلل متعددة ومعقدة.

هذا مع أنه حتى فى علوم الفيزياء وغيرها لايزال الكثير من مظاهرها خفى عن إدراك الإنسان فلا يكاد يعطى لها سبباً معقولاً.

فمثلاً الحرارة - ما تزال قوة مجهولة فى جوهرها وكل ما نعرفه عنها أنها قادرة على تمديد الأجسام فتقاس بدرجة هذا التمدد.

والثقل - قوة مجهولة أيضاً فى جوهرها، لكن نعلم أنها قادرة على جذب الأجسام فتقاس بطاقة هذا الجذب.

والكهرباء - قوة مجهولة فى جوهرها لكنها قادرة على إحداث بعض النتائج الضيائية الحارة، فتقاس أيضاً بشدة هذه النتائج، لكن لا تزال العال الأصلية قاصرة^(١).

فى ضوء ذلك ثار جدل طويل عن التاريخ.

هل هو علم؟

وإذا كان كذلك فإلى أى أنواع العلوم ينتمى؟

أم أن التاريخ فن أو أدب؟

وبالطبع أدى هذا لسلسلة أخرى من التساؤلات مثل:

ما الذى يبحث فيه التاريخ؟

ما هو موضوعه؟

ما هى أهدافه؟

ما الفائدة من دراسته وتدرسه؟

ما الشروط اللازم توفرها فيمن يتعرض للبحث التاريخى؟

هل يحتاج هذا الباحث للتزود بقدر من المعرفة فى علوم أخرى؟

(١) لوبون، غوستاف: مُرجع سابق ص ٢٨.

ما هو المنهج الذى يتبعه الباحث فى التاريخ؟

وسنحاول فى الفصول التالية الرد على هذه التساؤلات وغيرها مما يُثار حول (التاريخ).

اختلف رجال العلم والتاريخ والأدب فى وضع التاريخ وفى نسبه إلى أى فرع من فروع المعرفة الإنسانية، فذهب الأستاذ وليم استانلى جيفونز (William Stanley Jevons) (١٨٣٥ - ١٨٨٢) الأستاذ بجامعة لندن فى كتابه «أصول للعلم» إلى أن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً، لأنه عاجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المادية والمشاهدة والفحص والإختبار والتجربة وبذلك لا يمكن فى دراسته إستخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً. فقيام عنصر المصادفة، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية، وحرية الإرادة، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء أو أضرابهم^(١).

وهكذا لخص جيفونز الأسباب التى من أجلها إستبعد التاريخ من زمرة العلوم فيما يلى:

(أ) الإختبار والتجربة أمران غير ممكنين فى الدراسة التاريخية.

(ب) كل واقعة من وقائع التاريخ قائمة بذاتها، ولا يمكن أن تتكرر ظروف وقوعها.

(ج) لا يمكن الوصول فى التاريخ إلى شىء من قبيل (التعميمات) أو (القوانين العلمية).

وختم هذا العالم الإنجليزى تحليله هذا بقوله:

«فمن السخف إنذار أن نفكر فى التاريخ على إنه علم بالمعنى الصحيح».

(١) عثمان، حسن: منهج البحث التاريخى ص ١٦.

وقد أيد هذا الإتجاه كارل ر. بوبر (Karl R. Popper) فى كتابه «عقم المذهب التاريخى» - فقد أوجز أدلته على كذب المذهب التاريخى فى النقاط الخمس الآتية: (١).

- ١ - يتأثر التاريخ الإنسانى فى سيره تأثيراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانية.
- ٢ - لا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية.
- ٣ - إنن فلا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنسانى.
- ٤ - هذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام علم تاريخى إجتماعى. ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية فى التطور التاريخى تصلح لأن تكون أساساً للتنبؤ التاريخى.
- ٥ - إذن فقد أخطأ المذهب التاريخى فى تصويره للغاية الأساسية التى يتوسل إليها بمناهجه.

وببيان ذلك يتداعى المذهب التاريخى.

وذهب آخرون إلى أن التاريخ فن، فالمؤرخ فنان يطلق العنان لطبيعته الفنية وخياله وموهبته الخاصة. فالتصوير الناطق يعبر عن ملامح العصر الذى يتحدث عنه (٢).

هذا ويرى آخرون أن التاريخ نوع من الأدب فهو يعنى بالتدوين القصصى لمجرى الأحداث. والقصة بلا شك هى من أبواب (الإنشاء الأدبى). والإنشاء الألبى فن، والأمر يحتاج إلى براعة الكاتب، ليبرز لنا القصص التاريخية والأحداث فى ثوبها اللائق.

(١) بوبر، كارل. عقم المذهب التاريخى (ترجمة عبدالحميد صبره) - التصدير

(٢) كاسيرر، أرسنت مرجع سابق ص ٥٥

لكن المؤرخ الإنجليزي بيورى (J.B Bury) أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كمبردج يذهب إلى «إن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل».

وقد نحا هذا النحوء عدد كبير من المفكرين القدماء والمحدثين من أمثال هراقليطس، وأفلاطون، وهيجل، وماركس، وأوجست كونت، وستيوارت مل، وشبنجلر، وكارل ملنهايم، وأرنولد توينبى - فاعتبروا التاريخ علم يهتم بتبع تطور المجتمع فى الفترات المتعاقبة

وإن كان المعارضون لذلك ينقدون أن تطور المجتمع يخضع لقوانين معينة فلا يمكن أن يكون للتطور فى نظرم قانون علمى^(١).

وقد ذهب كونت (Auguste Conte) إلى حد القول «إننى سأقدم برهاناً فعلياً على وجود قوانين محددة للأحداث المرتبطة بارتقاء وتطور العنصر الانسانى، كما توجد قوانين لسقوط الحجاره.

إن فكرة التطور تعنى ظهور عوامل جديدة وهذه العوامل تظهر نفسها فى تقدم اللغة، والدين، والفن، والعقل، وهناك منهج واحد يمكن بواسطته معرفة أصل هذه العوامل - هو المنهج التاريخى^(٢).

وقد عارض كونت الإعتقاد القائل بوجود شىء فى عالم الإنسان يمكن إرجاعه للمصادفة، وأن هناك شيئاً يخلو من النظام الطبيعى وحتميته الصارمة

وقد أيد هذا الراى تين (H. Taine) فى فرنسا فى كتابه - Vie et Corre- "spandance" وذهب فى النهاية إلى أن العلل المختلفة للأحداث يمكن أن تنتهى بنا إلى بعض المبادئ العامة التى تتحكم فى كل الوقائع وتقررها - وإننا نستطيع العثور وراء كل تنوعات الأحداث التاريخية، واختلافها إلى درجة كبيرة

(١) بوير. كارل: مرجع سابق ص ١٣٣

(٢) كاسيرر، ارنست. مرجع سابق ص ٤٣ وما بعدها

- كما يقول تين - على نفس الهيكل العظمى الذى لا يتغير كثيراً أو قليلاً، فالوقائع تتغير ولكن هيكلها يبقى (١).

ولعل العركة كما يذكر الأستاذ هرنشو (Hearnshaw) تنفض إذا وصلنا لتعريف، سليم للفظى (علم) و(تاريخ) (٢).

فلو عرفنا العلم بأنه «المعرفة المنظمة المبوية المقتنة» - وأن صفة العلم يمكن أن تطلق على «كل دراسة تهدف لتوخى الحقيقة، والوصول إلى حكم قائم على النقد، مع البعد عن كل هوى النفس، وكل افتراض سابق، على أن تقوم هذه الدراسة على الأمور الثلاثة: التصنيف، والتبويب، والتقنين» (٣).

أو إذا أخذنا بقول الأستاذ ت. ه. هيكسيلي (T.H. Huxley) «إن العلم هو كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط».

أو كما يقول الدكتور الكسندر هل (Alex. Hill) «إن كل معرفة معقولة هي علم.. فالعلم معرفة روعيت فيها الأوضاع الصحيحة».

كذلك توضيح الأستاذ كارل بيرسن (Karl Pearson) لوظيفة العلم بأنها تنحصر فى تقسيم الوقائع، ومعرفة نتائجها، وأهميتها النسبية.

وتعريف الأستاذ ف. ج. تجارت (F.I. Teggart) للعلم «بأنه مجرد البحث المنظم للتصرفات التى تبدو فى الظواهر الطبيعية».

(١) كاسير، أرست: مرجع سابق ص ٤٨

(٢) هرنشو: مرجع سابق ص ٣.

(٣) يعرف د. شار مالك - العلم بأنه هو الذى يؤدى إلى المعرفة - ويقسم العلوم الى ثلاثة أقسام رئيسية:

العلوم النظرية: غايتها المعرفة من أجل المعرفة..

العلوم العلمية: تهتم بسلوك الإنسان كإنسان.

العلوم الإنتاجية: غايتها الاتيان بانتاج مادى سواء أكان جميلاً فقط كالتمثال أو الرسم أو مفيداً لسد حاجة ما.

أنظر - مالك، شارك وأخرون: البحث العلمى فى العالم العربى (بيروت ١٩٥٦) ص ٥٠

وما بعدها

إذا أخذنا - بهذه التعاريف - فليس ثمت مسوغ لأن نتعجل فى أسقاط التاريخ من عداد العلوم.

فالميتورولوجيا علم رغم أننا لا يمكن أن نصل فيها إلى تعميمات خاصة بالجو، فلا زلنا بعيدين عن وضع قوانين ثابتة لكثير من الظواهر، ولا تزال تنبؤات الخبراء عن أحوال الجو تخطئ، ومع ذلك لا يوجد من ينكر أن الميتورولوجيا علم.

ويقول شارل سينويس (Seignobos, Ch.) المؤرخ الفرنسى «التاريخ علم ما فى ذلك ريب - فهو علم الوقائع التى تتصل بالأحياء من الناس فى مجتمع خلال توالى الأزمنة فى الماضى - وهو يدخل فى عداد العلوم الوصفية»^(١).

والتاريخ - كما يقول هرنشو - «يقوم على أصول تضارع قيمتها على أقل تقدير - ذرات الكيمياء النابضة، والكترونيات الفيزيى الراوغة - إن التاريخ يبحث فى الفعل ورد الفعل الصادرين عن إنسان غير متغير أصلاً، وعن بيئة غير متغيرة أصلاً»^(٢).

فإذا أخذنا التاريخ بمعنى (البحث) أو الاستقصاء بهدف الوصول إلى الحقيقة التى من وراء الأحداث فهذا المعنى يكون التاريخ علماً.

إنه ليس كالفلك - علم معاينة مباشرة، ولا كالكيمياء علم تجربة وإختبار ولكنه علم نقد وتحليل.

وهو كما يذكر - هرنشو - أقرب العلوم الطبيعية إلى (الجيولوجيا) كما

(١) من رسالة له بتاريخ ١٠/٢٩/١٩٤١ - أنظر: أنجلوسينويس: المدخل إلى الدراسات التاريخية (ترجمة د. عبدالرحمن بدرى ضمن مجموعة بعنوان النقد التاريخى) - المقدمة ص (١)

وقد رجعنا أيضاً للترجمة الانجليزية بقلم Berry والتي نشرت فى لندن عام ١٩١٢ واشترنا إليها.

(٢) هرنشو: مرجع سابق ص ٥ وما بعدها

أن الجيولوجى يدرس الأرض كما هى الآن ليعرف - إذا أمكنه ذلك - كيف صارت الى حالتها الحاضرة - فكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن الماضى ويحاول أن يفسر بواسطتها ويقدر إمكانه ظاهرة الحاضر.

وكما أن الجيولوجى يجد مادته الأساسية فيما حفظ من بقايا الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة - فكذلك المؤرخ يعتمد فى معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو سجلات أو تقاليد.

يعتمد المؤرخ على ما تعده به هذه الآثار أو السجلات، أو غيرها من مادة علمية - بعد أن يتحقق من صحتها، ويستبعد ما يثبت عدم صحته أو ما يداخله شك فى صحته فيلقى عليه الضوء، ويحاول بفكره أن يستخلص الأسباب والدوافع التى كانت وراء تلك الوقائع.

ولابد أن يضع فى الإعتبار العوامل الأخرى غير منطلق العقل التى تؤثر فى الأحداث الهامة.

إن الكثير من الأفعال الإنسانية سواء فى ميدان السياسة أو الفلسفة أو الدين أو الفن لا تمثل إلا الجانب الخارجى من الإنسان - أما الحياة الباطنية فإنها لا تظهر نفسها إلا بعد النفاذ وراء هذه الأفعال لإختبار طبيعتها وإثارها الطبيعية فى قلوب الناس.

وقد ترتب على هذه النظرة - تغير موضع بؤرة التاريخ.. فالأحداث أصبحت هامة فقط بقدر إستطاعتها الكشف عن الطبيعة الإنسانية وإزالة الحجب عنها^(١).

فهناك أيضاً إندفاعات الحياة العاطفية اللاشعورية. وكما يقول - غوستاف لوبون - «إن العديد من المنازعات التى تزعج حياة الأمم وتسيطر على تاريخها - مرجعها إلى الحياة الغريزية التى تولد الشهوات، وسيبقى الأمر، ولا

(١) كاسيرر، أرنست: مرجع سابق ص ٦.

ريب هكذا حتى اليوم الذى ستتخلص الإنسانية فيه من الحياة اللاشاعرة الوراثة - فتبلغ من التطور الكافى ما يكون العقل فيه مسيطراً، ولم تبلغ هذه المرحلة بعد. ولذلك يشتمل التاريخ على قليل من الحوادث التى أوحى بها العقل المحض (١).

ولعل من الأمثلة القوية لذلك الدوافع وراء الإستعمار الأوروبى فى العصر الحديث. فلاشك فى أن الدوافع النفسية أو الفريزية من حب العظمة وحب التظاهر، والرغبة فى التقليد والمحاكاة، وغير ذلك من العوامل - كانت من العوامل التى دفعت الشعوب ثم الحكومات للعمل على بسط نفوذها على مساحات واسعة من الأرض لم تكن خاضعة لها - فالشعوب والدول تتكون من مجموعة أفراد تتحكم فيهم وتسيرهم الغرائز الطبيعية للإنسان (٢).

وإذا سلمنا بأن التاريخ علم نقد وتحليل، وأن الأمر يصل بالمؤرخ إلى حد أن يضع فى إعتباره العوامل النفسية التى قد تشترك وتؤثر فى تشكيل حوادث التاريخ - فإننا نستطيع أن نقول أن التاريخ علم يهتم يبحث المتبقى من أحداث الماضى، ومحاولة الإستعانة بها على توضيح الحاضر وتفسيره - وتتسع أبحاث علماء التاريخ لتشمل جميع ما يتعلق بالإنسان وتصرفاته من شئون سياسية وإجتماعية أو ما يتعلق فيها بشئون المال والإقتصاد وغير ذلك ولذا تعددت فروع التاريخ، فهناك التاريخ السياسى، والتاريخ الاقتصادى، والتاريخ الاجتماعى، والتاريخ الحربى (٣).

(١) لويون، غوستاف: مرجع سابق ص ٤١

(٢) من يريد المزيد من التفاصيل عن هذه الدوافع النفسية - انظر:

حزبن، سليمان: صفحات من تاريخ الاستعمار.

والجمل، شوقى: تاريخ كشف أفريقيا، وأستعمارها الطبعة الثانية ص ١٤٦ وما بعدها.

(٣) يميز بوير، كارل - بين التاريخ بفروعه المختلفة - السياسى، والاقتصادى

والإجتماعى، والحربى - وبين علوم السياسة والاقتصاد والإجتماع والحرب، ويرى أن

الفرق يتلخص فى التمييز بين الإهتمام بالقواتين الكلية التى تهتم بها هذه العلوم وبين

الوقائع الجزئية المفردة التى يهتم بها التاريخ - لا القواتين أو القضايا العامة

ملاحظة: لا نقر (بوير) على هذه النظرة لمهمة التاريخ فهو رأى على غلبه الزمان.

انظر بوير، كارل: مرجع سابق ص ١٧٢

على أن التاريخ وإن كان فى بداية عهده قد قصر إهتمامه على الشئون المتعلقة بالملوك، والطبقة العليا من المجتمع كالقواد والوزراء - حتى أن البعض عرفه بأنه مجموعة من السير المختارة المتعلقة بطبقة معينة من المجتمع - فإنه كان لابد أن يطور ميدانه بعد أن رسخت أقدام الديمقراطية - وذاعت الإشتراكية، وتعددت الحركات الشعبية منذ منتصف القرن التاسع عشر - فكان لابد من قيام جديد للتاريخ.

لذلك اتجه عدد غير قليل من المؤرخين الى الإهتمام بحياة الشعوب فلم تصبح السياسة، وما تقوم به الحكومات هى مجال التاريخ وأصبح القول «بأن التاريخ هو سياسة الماضى، والسياسة هى تاريخ الحاضر» - لغوا لا لاقية له.

نذلك نجد المؤرخ الإنجليزي لورد (أكتن) فى عام ١٨٩٥ ينتقد بشدة تركيز المؤرخين على الناحية السياسية وإهمالهم ما يتصل بالجمامير وأفكارهم فيقول «إن اختصاصنا تناول ما هو أبعد مدى من شؤون الساسة، وهو غير خاضع لتشريع الحكومات. أن من واجبنا أن نحيط بحركات الأفكار التى هى علة الحوادث العامة لانتيجتها، وأن نجعلها نصب أعيننا دائما»^(١).

ومن الذين أدركوا قصور الكتابة التاريخية المقتصرة على السياسة فقط (فولتير). فقد ذكر «إن التاريخ لن يكون فقط بياناً عن المعارك والعمليات الحربية.. أو عن المؤامرات والدسائس الدبلوماسية والسياسية.. بل إلى جانب الأحداث السياسية عليه أن يرسم صورة لتقدم الاتجاهات الفكرية، والميول الأدبية والفنية لكل عصر، وعليه فى النهاية أن يعرض نظرة عامة للحياة الخلقية بأسرها فى العصر الذى يتناوله»^(٢).

(١) هرنشو: مرجع سابق ص ٩٣

(٢) كاسيرد، أرنست: مرجع سابق ص ٦٨

هذا وقد حاول فولتير القيام بكل هذا فى كتابه (عصر لويس الرابع عشر) كذلك فى كتابه (مقال عن العادات Essai sur Les moeurs).

ومع هذا فحتى نهاية القرن التاسع عشر ظل كثيرون لا ينظرون للتاريخ الحضارى نظرتهم للتاريخ السياسى، وذكر البعض أن هذا النوع من الكتابة والدراسة التاريخية يجب ألا تكون مجرد إشارات عابرة أثناء دراسة التاريخ السياسى باعتباره الأصل.

ومع ذلك فلاشك فى أن الذين قصروا النظر إلى التاريخ على أنه (تاريخ للدول) قد أوصدوا أمام أذهانهم إدراك الظروف المتعددة المحيطة بهذه القوة السياسىة والمؤثرة فيها.

ونشير إلى أن علم التاريخ وأن كان قد خرج من النطاق الضيق الخاص بالسياسة. ورجال السياسة ونزل إلى (الشارع) حيث عامة الشعب فاهتم بأفكارهم والأهم وأمالهم - فقد وجدت مدارس أخرى اهتمت بتوجيه الدراسة التاريخية وجهات أخرى - نذكر منها مثلاً مدرسة الاشتراكيين من أتباع كارل ماركس (Karl Marx) (١٨١٨ - ١٨٨٣) فقد دعت إلى التصور الإقتصادى أو المادى للتاريخ.

كذلك ركزت مدرسة أخرى من علماء النفس الإجتماعيين بزعماء كارل لبرخت (Karl Lamprecht) المؤرخ الألمانى (١٨٥٦ - ١٩١٥) على ما أشرنا إليه سابقاً من دوافع غريزية ونفسية وراء أحداث التاريخ.

والحقيقة التى أنتهى إليها المعتدلون من المؤرخين اليوم هى أن عاملاً واحداً لا يمكن أن ينفرد بتفسير الظواهر المتعددة وأحداث المجتمع التى لاشك فى أنها محصلة العديد من العوامل.

على أننا نشير - ونحن فى مجال بحث وضع التاريخ بين العلوم الأخرى - إلى أن محاولة بعض المؤرخين فى القرن التاسع عشر الزج بالتاريخ فى رمرة

العلوم الطبيعية - أدت إلى الوقوع فى أخطاء لا مبرر لها من حيث طريقة البحث التاريخى وتعميماته - فلا شك فى أن التاريخ:

١ - من حيث طرائقه علم نقد لا علم ملاحظة وتجربة، وفى هذا يختلف عن العلوم الطبيعية.

٢ - أما من حيث تعميماته - فإن التعميم فى التاريخ قد يؤدي إلى نتائج خادعة بعيدة كل البعد عما يمكن أن نطلق عليه لفظ (قانون).

فالتعميم كمنهج تاريخى يؤدي إلى أحكام متناقضة تناقضاً يجعل الحقيقة أمراً يصعب تمييزه^(١).

على أن القول بأن التاريخ لا يمكن الزج به فى زمرة (العلوم الطبيعية) آثار تساؤلاً آخر هو:

ما هى إذاً فوائد التاريخ للفرد وللمجتمع؟

أو بمعنى آخر - لماذا نهتم بتدريس التاريخ لأبنائنا؟ وما الذى نهدف إليه من وراء ذلك؟

وهل تحقق دراسة التاريخ هذه الاهداف المرجوة؟

ذهب البعض - وفى مقدمتهم - الفيلسوف البريطانى كيرد Carid (١٨٢٥-١٩٠٨) إلى القول بأن المعرفة التى لا ترتفع عن مستوى الوقائع والجزئيات، والتى لا يربط بين أجزائها قانون من القوانين - لاتعتبر أداة صالحة، للتعليم». هذا وإن كان كيرد يذهب إلى أن التاريخ وإن لم يمكن إعتباره علماً يقينياً على نحو ما نعتبر الآليات والبصريات، وحتى علمى النبات ووظائف

(١) عن التعميمات فى التاريخ - أرجع إلى:

- لوبون، غوستاف: مرجع سابق ص ٦٠ وما بعدها.

- كذلك بوير، كارل: مرجع سابق ص ١٦ وما بعدها.

الأعضاء - إلا أنه من حيث طرائقه ونتائجه - أخذ على أقل تقدير بشبه قوى جداً من العلوم المذكورة يجيز لنا أن نطلق عليه اسم العلم^(١).

ويرى كيرد أن للتاريخ بعض الفوائد، فهو يكسبنا تصوراً صحيحاً للأشياء العارضة الموقوتة بالقياس للأشياء الأبدية الدائمة فى حياة الإنسان.

لقد كان التساؤل هو: إذا كانت الحوادث لا تتكرر، وكان من المستحيل الوصول إلى تعميمات تنتظم الظواهر التاريخية - فما الفائدة التى يمكن أن تأتى من دراسة التاريخ؟

لاشك فى أن دراسة التاريخ تحقق العديد من الفوائد، يمكن أن نجملها فيما يلى:

أولاً - قيمة التاريخ فى تربية الفرد:

يرى البعض أن دراسة التاريخ تنشط الفكر وتشحن الذهن، فالتاريخ أداة لرياضة العقل. بينما يرى آخرون أن دراسة التاريخ - دون سواها - أصلح الدراسات لتعميد الإنسان الفضائل الخاصة والعامّة.. وقليل من الناس من يعارض اليوم فى وجوب الاستفادة من دروس وعبر التاريخ لإلقاء دروس فى الأخلاق خارجة عن نطاق البحث التاريخى ذاته.

فإذا أخذنا بهذه الاتجاهات - فإن دراسة التاريخ توسع أفق الطفل، وترفع مستوى الأخلاق، وتبرز العلاقة بين النتائج والمسببات.

وقد ذهب البعض فى تفصيل ذلك إلى أن هناك تماثلاً تاماً بين حياة الفرد، وتاريخ الإنسانية - فالإنسان هو العالم الأصغر، والإنسانية هى العالم الأكبر ولذلك يستطيع الفرد عن طريق دراسة التاريخ أن يدرك عن نفسه وعن علاقته بغيره الشيء الكثير مباشرة كما تفيد الشعوب^(٢).

(١) هرنشو: مرجع سابق ص ١٠٣

(٢) انجلو وسينويس: مرجع سابق ص ٢٥٠

ثانياً - قيمة التاريخ لرجال السياسة:

تتخذ بعض الدول من التاريخ الذي يُدرّس في المدارس وسيلة لنشر المبادئ التي تؤمن بها، سواء أكانت تقدّيساً للملكية أو الجمهورية، أو المبادئ البلشفية أو الفاشستية أو غير ذلك.

فهل يا ترى يحقق تدريس التاريخ هذا الهدف الذي يرمون إليه؟

وهل نجحت محاولة الإستعانة برجال التربية في محاولة استخدام مدرسي التاريخ في المدارس العامة - كدعاة إلى السلام أو الحرب أو كناشريين لمذهب معين سياسى أو اقتصادى؟.

لقد خرج رجال التربية بنتيجة هامة هي: أن بث الدعاة في المدارس بهذا الشكل لا يحقق بحال ما الغرض منها، بل بالعكس - يجعل الذلاميد كلما تقدم بهم السن - أميل إلى الشك فيما فُرض عليهم فرضاً في طفولتهم.

لكن مع ذلك فإن المؤرخ الإنجليزي جون سيلي (John Seeley) (١٨٣٤ - ١٨٩٥) يذهب إلى «أن التاريخ مدرسة السياسة، وبدون مقدار يسير منه على أقل تقدير لا يمكن الانسان أن يعنى عناية معقولة بالشؤون السياسية، وبدون حظ موفور منه لا يمكنه أن يصدر حكماً معقولاً في أى شأن من شؤونها، إن التاريخ دراسة هامة لكل مدنى، ولكن هو الدراسة الهامة الوحيدة الخليفة برجال الحكم والتشريع»^(١).

١ - هو مدرسة لتعليم طريقة البحث السياسى:

فالتاريخ والسياسة علمان إجتماعيان نفسيان، وكلاً من السياسى والمؤرخ لا مندوحة له عن الإستنباط من وقائع غير متيقنة وأسباب ليست معروفة تماماً.

فالمؤرخ عند شروعه في بحث حادثة معينة لا سبيل أمامه للوصول إلى

(١) هرنشر مرجع سابق ص ١٠٨

الحقيقة المطلقة الثابتة، وكذلك النشان فى السياسة، فليس فيها شىء ثابت مستيقن.

ودراسة التاريخ مفيدة جداً من حيث هى مدرسة لتعليم طريقة البحث - فهى تعلم السياسى الحذر، واستقلال الرأى وتبيينه لاكتساب ملكة الاستدلال بالأمثال الظاهرة على البراعث والأفكار الغامضة.

٢ - التاريخ مستودع للأحداث السياسية السابقة:

فالإنسان عندما يبلغ سن النضج تهديه تجاربه السابقة التى تعيها ذاكرته فى سلوكه الحالى، والجنس البشرى بالمثل، لكن التاريخ هو ذاكرة الجنس البشرى.

وقد عبّر الفيلسوف والنرخ البريطانى دافيد هيوم (David Hume) (١٧١١ - ١٧٧٦) عن ذلك بقوله: «إذا تأملنا قصر حياة الانسان، ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع فى زماننا - فلاشك فى أننا نشعر بأننا كنا نبقى أطفالاً فى إدراكنا لو لم يقبض لنا هذا الإختراع الذى يرجع بخبرتنا إلى جميع العصور الماضية، وإلى أقدم الأمم الخالية، إن الرجل المطلع على التاريخ يمكن ان يقال عنه من بعض الوجوه «إنه يعيش منذ بداية العالم».

وإذا أدركنا أن الأحداث العالمية مترابطة بعضها ببعض الآخر بشكل عجيب - يمكننا أن ندرك أهمية التاريخ الحقيقية - فإن نهضة مصر مثلاً لم تكن مستطاعة بغير الشرق، واعتمد اليونان على مصر فى نهضتهم وتسلفت روما ذروة مجدها على ظهر العالم بأسره - وهكذا يخدمنا التاريخ فى تتبع هذه السلسلة من الأحداث المتصلة^(١).

٣ - التاريخ أساس التقدم السياسى:

فالتاريخ يمد السياسى بأكثر من سابقة تمت تجربتها، ويوقفه على

(١) كاسيرر، أرنست: مرجع سابق ص ٨.

الأصول الواقعية لمشاكل الوقت الحاضر، فكل المشاكل الكبيرة القائمة في وقتنا الحاضر سياسية كانت أو إجتماعية لها تاريخ بعيد.

فلا يمكن للسياسي فهم حقيقة المشكلة التي تعترض له إن لم يفهم ويدرس أصولها القديمة.

ثالثاً - التاريخ كفرع من فروع الدراسات الإجتماعية:

لم يعد التاريخ ينظر إليه النظرة الضيقة التي أخذ بها بعض المؤرخين - فاعتبروا مجاله دراسة شؤون الحكومات، والحروب والشؤون المتعلقة بالإدارة، والدبلوماسية فحسب - بل أصبحت للتاريخ مجالات أخرى أوسع، ولعلها أهم من شؤون الحكم والإدارة والسياسة.

لقد أصبح يُنظر للتاريخ علي أنه فرع من عائلة كبيرة هي (الدراسات الإجتماعية)، ولذلك فإنه تربطه بأفراد هذه العائلة روابط وثيقة.

ومن هنا كانت صلة التاريخ بعلم الاقتصاد والجغرافيا والانثروبولوجيا (علم الاسنان)، وعلم الآثار وغيرها من العلوم الاجتماعية.

وقد ذهب البعض إلى أن التاريخ يجب أن يركز على (حضارة الشعوب) ويصرف النظر عن الحروب والحوادث السياسية... بينما وجد من تمسك بالتاريخ السياسي واعتبره قمة الدراسات التاريخية.

وكما يقول د. أسد رستم «إن الطرفين كانا محقين في بعض ما ذهبوا إليه وانهما تطرفا في القول في ان واحد - ففي تاريخ الحضارة ما لا يستغنى عنه لفهم الماضي، وفي تاريخ الحروب والحوادث السياسية ما لا بد من إيضاحه لفهم الأحوال والظروف، التي نعيش فيها» (١)

أما عن علاقة التاريخ بالعلوم الاجتماعية الأخرى وبغيرها من العلوم فسنعرض له بشيء من التفصيل في الفصل القادم

(١) رستم، اشد. مصطلح التاريخ - مرجع سابق ص ١١٢

وفى ختام الحديث عن أهمية التاريخ والبحث التاريخي أشير إلى ما ذكره الدكتور شارل مالك من أن للعلوم الإنسانية فى عصرنا هذا إما أنها أهملت لحساب العلوم الطبيعية وللإغراءات التكنولوجية، أو طبقت طريقة هذه العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية فى تعسف وضيق نظر - ويتساءل: ماذا ينفع الإنسان لو فهم أسرار الطبيعة جميعها وسخر قواها كلها ولم يعرف مع ذلك نفسه؟

ماذا ينفع الإنسان لو ضيع عقله فى الجزئى والحسى والسطحى والعاير والحسى، ولم يتحرق فى قلبه الى الأشد حسنا، والأشد أصالة وعمقا والأشد شمولاً وكياناً؟

وينتهى إلى التحذير من الإكتفاء الحزين بالعلوم المادية الوضعية، ولنعرف من معين الروح العارفة ليس للمادة فحسب، والمتأكدة ليس من الطبيعة فحسب، بل العارفة والمتأكدة من نفسها ومن الإنسان ومن الله^(١)

(١) مالك، شارل وآخرون: مرجع سابق ص ٢٠ وما بعدها

الفصل الرابع

العلوم الأخرى الوثيقة الصلة بعلم التاريخ

مباحث هذا الفصل:

- صلة التاريخ بعلم الجغرافية.
 - أهمية العلوم السياسية، ودراسة النظم الدستورية للباحث التاريخي.
 - علم الاقتصاد وعلاقته بالتاريخ.
 - علم الانسان (الانثروبولوجيا) وصلته بالتاريخ.
 - علم الآثار (الأركيولوجيا) وصلته بالتاريخ.
 - علم المسكوكات (النُميات) وأهميته للمؤرخ.
 - علم الوثائق وأهميته للباحث التاريخي.
 - اللغة ودراسة الخطوط وأهميتها.
 - معرفة الأختام، والأخبار، والأقلام.
 - علوم القرآن والتفسير - والعلوم الاجتماعية والفلسفية.
 - العديد من العلوم الأخرى.
- (يختلف حسب موضوع البحث والفترة الزمنية)



رأينا أن علم التاريخ فرع من فروع الدراسات الإجتماعية (Thosiology) ولذا فهو وثيق الصلة بالعلوم الإجتماعية الأخرى - كعلم الاقتصاد، والجغرافيا، وعلم الانسان (Anthropolgy) وعلم الآثار (Arceology).

وصلة التاريخ بهذه العلوم، وبالعديد من العلوم الأخرى التي سنذكرها تجعل من واجب المؤرخ أن يلم بقدر من هذه العلوم - إذ بدونها لا يمكنه أداء رسالته كباحث تاريخي على أكمل وجه.

والبعض يُطلق على هذه العلوم تعبير (العلوم الخادمة) أو (العلوم المساعدة) (Sciences ancillaires)(١).

فالتواهر الجغرافية كالسطح، والناخ، والنبات، وغيرها عظيمة الأثر فى الأحداث التاريخية(٢).

فإذا كانت الجغرافيا تعنى بالأرض وما يرتبط بها من الظاهرات التي أسلفنا ذكرها - فإن التاريخ يهتم بالإنسان الذي يعيش على هذه الأرض وتؤثر فيه بظاهراتها المختلفة وعواملها المتباينة، كما يؤثر هو فيها - فهي المسرح والإنسان هو الممثل الذي يؤدي دوره على هذا المسرح.

ولاتحتاج الصلة بين طبيعة الأرض والعوامل المختلفة المرتبطة بها، وبين حياة وتاريخ من يعيشون عليها للشرح والتفصيل.

ففى السهول الخصبة والوديان كوادى النيل، والدرجة والفرات وغيرها.. قامت اقدم الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ كالحضارة الفرعونية القديمة، والحضارة الأشورية والبابلية. إذ أتاحت هذه الظروف الجغرافية للإنسان - فرص الإستقرار وبناء المساكن وإستغلال موارد البيئة المختلفة

George, P. B. The Relations of Geography and History (Oxford 1924). (١)

Semple, Ch. Influence of Geographic Environment (N Y. 1911). (٢)

للزراعة أو الرعى أو غيرها. وفي هذه الظروف، الهياة تقدم الإنسان في مختلف المعارف والفنون فاستطاع أن يستفيد إلى أكبر حد ممكن مما قدمته له الطبيعة من إمكانيات، واستطاع أن يتغلب على ما صادفه من عقبات.

هذا بينما نجد البيئة الصحراوية والبيئة الجبلية بينات طاردة تدفع الإنسان للرحيل وعدم الإستقرار بحثاً عن أماكن أكثر خصباً أو موارد أخرى للرزق.

والدعوامل الجغرافية المختلفة تؤثر في نشاط الإنسان وتشجيعه على العمل، كما تؤثر في طباعه وأخلاقه ومزاجه وفي شحذ ذهنه أو العكس.

وربط تاريخ العديد، من الأقطار بموقعها الجغرافى بالإضافة إلى المعالم الجغرافية الأخرى فتاريخ مصر على مر العصور تأثر بموقعها فى الركن الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا وبسواحلها المطلة على البحرين المتوسط والأحمر، فكان إتصالها مستمراً بالحضارات التى نشأت فى حوض البحر المتوسط وعلى سواحلها من فينيقية وإغريقية ورومانية - كما أن الصحراء الغربية الواسعة هيات لمصر دائماً حماية طبيعية فلم تتعرض لجيوش منظمة غازية من هذه الجهات فى تاريخها الطويل إلا فى مرات محدودة، ولم تنجح هذه المحاولات فى الغالب، - فحتى فتح الفاطميين لمصر من الغرب لم ينجح إلا بعد العديد من المحاولات - وبعد استعدادات وتدابير خاصة للتغلب على الصحراء بجفانها. وفى العصر الحديث - رغم كل التقدم العلمى - واجه جيش (روميل) فى الحرب العالمية الثانية مصيره المحتوم نتيجة امتداد خطوط تموينه عبر الصحراء القاحلة الشاسعة غربى مصر.

وكان لموقع مصر الفريد وتحكمها فى طرق التجارة بين الشرق والغرب عبر البحرين الأحمر والمتوسط - حتى قبل حفر قناة السويس - أثره فى ثراء وقوة دولة المماليك الحاكمة فيها - ولما أكتشف البرتغال طريق رأس الرجاء

الصالح وتحولت التجارة - مؤقتا - الى هذا الطريق الجديد تأثرت بذلك دولة المالك، وكان هذا العامل الجغرافى من أهم عوامل ضعفها وسقوطها.

وتأثر تاريخ مصر الحديث بهذا الموقع الفريد - خاصة بعد حفر قناة السويس - فأصبحت مطمعا للإنجليز وهدفاً من أهدافهم - كيف لا وهى تتحكم فى الطريق القصير المؤدى لجمهرة التارج البريطانى (الهند)، وقد حاول بونابرت ضربهم - ليس فى بلادهم نفسها بل باستيلانه على مصر وتحكمه فى هذا الطريق. ولذا كانت السياسة الإنجليزية تجاه مصر طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين مبنية على هذا الإدراك لأهمية موقع مصر الجغرافى. وكان إحتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ وحرصهم - أثناء مفاوضاتهم المتعددة للجلاء - على الإحتفاظ بقواعدهم فى منطقة قناة السويس قائماً على هذا الإدراك لأهمية منطقة القناة لهم.

وما يقال عن موقع مصر الجغرافى يُقال عن مناطق أخرى مماثلة مثل عدن التى إحتلتها انجلترا عام ١٨٢٨، وجبل طارق التى لاتزال تحتلها الى اليوم، واهتمامها بعدم سيطرة أية دولة أخرى على مدينة (طنجة) التى اصرت رغم إتفاقها الودى مع فرنسا فى ١٩٠٤ على أن تبقى دولية. وهناك العديد من الأمثلة يمكن أن تساق لتوضيح أهمية دراسة العوامل الجغرافية لفهم حقائق التاريخ.

وموقع الجزائر البريطانية نفسها أثر على تاريخها أبلغ الأثر - فظلت بعيدة الى حد كبير عن غزو أعدائها لها فى عقر دارها - يُقال ذلك عن حروبها مع بونابرت أو حروبها مع هتلر والنازيين كما كان لهذا الموقع أثره فى السيادة البحرية للإنجليز فأكتسبت أساطيلهم شهرة واسعة وحرصوا على تحطيم كل منافس لهم فى هذا المجال فأغرقوا الأرمادا الأسبانية فى ١٥٨٨، كما حالوا دون دخول أية قوة بحرية أخرى منافسة مياه البحر المتوسط والمياه الدافئة الأخرى التى اعتبروا أنفسهم سادتها - فرسموا سياستهم تجاه الدولة

العثمانية على أساس إبقاء الأوضاع كما هي عليه حتى لا يشاركهم الروس
السيادة في هذا البحر.

ولعبت العوامل الجغرافية الأخرى كالأنهار والجبال وغيرها دوراً هاماً
كعوامل ربط، أو كعوامل لتحديد الحدود بين الدول المختلفة^(١)

ومن جهة الأنهار كعوامل ربط لعل نهر النيل وربطه بين مصر والسودان
وغيرهما من أقطار حوض النيل وأثر ذلك في تاريخ هذه الأقطار على مر
العصور يعطى أوضح مثل.

ولعل الدور الذي لعبه مناخ روسيا في هزيمة الجيوش الألمانية في
الحرب العالمية الثانية أكبر دليل على الأثر الجغرافي في مجرى التاريخ فرغم
أن الروس كانوا في عام ١٩٤٢ قد فقدوا خلال حربهم ضد الألمان الحقول
الغنية بالحنطة في أوكرانيا، والجهات الصناعية الهامة في حوض الدينير، كما
استحوذ الألمان على مناجم فحم حوض الدونتز، وجميع أنحاء شبه جزيرة
القرم - ما عدا سيباستبول - لكن حل شتاء روسيا القارس البارد على الألمان
وهم يدقون على أبواب موسكو ولينينجراد فاستعصى عليهم فتحها واضطروا
للتراجع وانتهى الأمر بالتسليم في ٣١ يناير ١٩٤٣، وهكذا تضافرت الطبيعة
على هزيمتهم كما حدث من قبل لجيوشهم في أكتوبر ١٩٤٢ في معركة العلمين
التي كانت نقطة تحول في مصير الحرب في ذلك الميدان الحيوى. والعجيب أن
يتفق تسليم القوات الألمانية في قطاع ستالينجراد تماماً مع دخول الجيش
الثامن البريطانى الذى أكتسح الجيوش الألمانية فى الصحراء الغربية -
تونس^(٢)

(١) للدراسة التفصيلية للأنهار وغيرها كحدود سياسية أنظر

Boggs, S.W.: International Boundaries

(٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه المعارك ودور العوامل الجغرافية فيها - أنظر

ميشرة: ل تاريخ اوريا فى العصر الحديث (تعريب احمد نجيب هاشم، وديع الضبع - ١٩٦١)

ص ٦٨ وما بعدها

ويعتبر ثودور مومسن (Theodor Mommsen) وهو من المدرسة التاريخية الألمانية الحديثة - علوم السياسة ودراسة النظم السياسية والدستورية بالإضافة إلى اللغات الأصلية في مقدمة العلوم اللازمة للباحث التاريخي فقد ذكر مخاطباً تلاميذه: «إن الذي يترك الجامعة ولديه معرفة مستفيضة باللغات اللاتينية، واليونانية والألمانية والنظم السياسية لهذه الشعوب، يكون صالحاً لأن يصبح مؤرخاً - أما الذي يفتقر إلى هذه المعرفة - فإنه لا يصلح. فإذا أخطأ علمنا بهذه المسائل فمن المؤكد أن البحث في المصادر وتصوير الأحداث العملية سوف يأتي من تلقاء نفسه، كما تُسقط السحب الكثيفة أمطارها.. ولكن إذا لم تحصلوا على هذه المعرفة فإنكم ستقطفون ثماراً تعطب بمجرد إمساكم بها»^(١).

وعلم الاقتصاد من أشد العلوم لزوماً للمؤرخ فقد وصل الأمر إلى أن ماركس وصديقه الألماني إنجلز (Engles) (١٨٢٠ - ١٨٦٥) ذهبوا إلى تفسير التاريخ تفسيراً إقتصادياً محضاً. ومع إعترفنا أن هذا الإتجاه مبالغ فيه إلى حد كبير - فلا شك في أن العوامل الإقتصادية لعبت دوراً بارزاً في تاريخ الإنسان. ففي العصور القديمة كان العامل الإقتصادي من أهم العوامل في حياة الإنسان الذي كان يكافح كفاحاً مريراً من أجل الحصول على قوته، وأصبحنا ندرس تاريخ الإنسان الحضاري على أنه تدرج من الالتقاط إلى الرعي إلى الزراعة إلى الصناعة وهكذا.. وأصبحنا نقيس حضارة الإنسان بمدى استغلاله لما تقدمه له البيئة من إمكانيات، ومدى تغلبه على العقبات التي تعترض طريقه في سبيل تذليل حياته وسد احتياجاته.

ورغم التطور الذي حدث في الحضارة البشرية فليس من شك في أن الشؤون الاقتصادية قد عادت من جديد لتفرض نفسها كعامل قوى جبار فعال يؤثر في علاقات الشعوب، وفي تحركاتها

(١) كاسيرر، أرنست: مرجع سابق، ص ٦٢.

وعوامل الانتاج التي قد تتوفر في دولة دون غيرها، توجه إلى حد كبير النشاط الاقتصادي، وبالتالي وضع الدولة بالنسبة للكفاية لسد إحتياجات سكانها أولاً ثم بالنسبة لعلاقاتها الخارجية بالدول الأخرى، فإذا توفرت الظروف الملائمة لقيام زراعة ناجحة وأحسن استغلالها وفرت حاجات السكان، وقد توفر فائضاً للتصدير. وهكذا نفس الشيء إذا توفرت عوامل قيام الصناعة الناجحة من مواد خام وقوة محرّكة وأيدي عاملة والآلات وأسواق لتصريف الانتاج.

والطريقة التي توزع بها الثروة بين أفراد الشعب، والفروق بين الدخول المختلفة تحدد أوضاع الطبقات المختلفة في المجتمع وتؤثر في نظام الحكم. ولعل المثل الواضح لذلك التغيير الذي طرأ على المجتمعات الأوربية نتيجة الثورة الصناعية، وظهور الرأسمالية الوطنية ثم ظهور العمال كقوة لها تأثيرها فتكونت النقابات، العمالية وأحزابها وأصبح لها وزنها وتأثيرها على تسيير دفة الحكم وقد أشرنا إلى أثر العامل الاقتصادي في قوة دولة المالك، وأثر انهيار اقتصادهم في ضعفهم العسكري وسقوطهم.

وقد برز العامل الاقتصادي في الحروب، فاستخدم كل من نابليون وإنجلترا هذا السلاح ضد الطرف الآخر، وظهر هذا العامل أيضاً في الحربين العالميتين الأولى والثانية ولعل دخول الولايات المتحدة الأمريكية في صف الحلفاء، ومساندتها الاقتصادية لهم كان كفيلاً بترجيح كفتهم في كل من الحربين

ولعب العامل الاقتصادي أيضاً دوراً هاماً في الإستعمار الأوربي الحديث، فكان من أهم أهداف الدول الاستعمارية الاستحواز على المواد الخام الأولية والأسواق التي تسد حاجات الدول الصناعية، ومن ثم كان الإستعمار الاقتصادي (Economic Imperialism) هو المظهر البارز للإستعمار الحديث.

والبتترول وهو من أهم مصادر الطاقة اليوم يلعب دوراً حاسماً في تحديد علاقات الشعوب، ومصادره مطمع أنظار الدول الكبرى كلها. فالبتترول الإيراسي، وبتترول العرب كان وما زال يؤثر في الأوضاع السياسية الداخلية

والعلاقات الخارجية للبلاد المنتجة له. وقد استخدم العرب بنجاح سلاح البترول ضد اسرائيل فى حرب عام ١٩٧٣، وما زالوا يلجؤون باستخدامه. وله بلاشك اثره وفاعليته على الدول الكبرى التى تحتاج إليه والتى يتأثر اقتصادها وحياة سكانها بما يصلها من هذا البترول بل وبأسعاره أيضاً فارتفاعها أو انخفاضها يؤثر فى الأوضاع الاقتصادية فى هذه البلاد المستغلة له.

والتبادل التجارى بين الدول وعلاقاتها الإقتصادية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات السياسية وتتأثر بها وتؤثر فيها.

وأمامنا أمثلة للدول الأفريقية التى نالت استقلالها حديثاً - فقد ظلت كثير منها مرتبطة فى اقتصادها بالدول المستعمرة السابقة، وأصبحنا نجد دولاً فى نطاق الإسترليني وأخرى مرتبطة إقتصادياً بدول الفرنك الفرنسى - وأصبح من الحقائق الواضحة أن الاستقلال السياسى للدولة مرتبط إلى حد كبير باستقلالها الإقتصادى وقدرتها على «سد حاجات سكانها دون الاعتماد على الدول الكبرى الاستعمارية».

ومن العلوم الأخرى الوثيقة الصلة بالتاريخ علم الانسان (الأنثروبولوجيا)، وعلم الآثار علم (الاركيولوجيا) - وقيمتها للمؤرخ لا جدال فيها خاصة فى إلقاء الضوء على حياة الإنسان الأول وحضارته وعلى العلاقات والعادات والتقاليد السائدة فى المجتمعات الإنسانية أو التى كانت سائدة ودلالاتها على ما كان بين هذه المجتمعات وغيرها من المجتمعات الأخرى من علاقات وروابط تاريخية.

ومن العلوم الأخرى التى لا يستغنى عنها المؤرخ علم المسكوكات - من نقود وغيرها بما تحمله من كتابات وصور للملوك والحكام - فسنوات ضرب النقود حددت إلى حد كبير سنوات حكم بعض الحكام التى لم تكن معروفة كما أن بعض هذه المسكوكات ضربت فى مناسبات تاريخية معينة فكانت دليلاً عليها، وتقدم علم النميات (Numismatics) تقدماً كبيراً فأصبحت العملة تدرس

من نواح متعددة من حيث ما هو منقوش على وجهيها، والمادة الخام التي ضربت منها ونسبة المادة النفيسة للمادة البخسة ودالاتها.

وقد كانت العملة من دلالات إستقلال الدولة وتمتعها بشخصيتها المميزة ومن العلوم الأساسية الوثيقة الصلة بالتاريخ علم الوثائق (Diplomatics)^(١).

والوثيقة - كما سبق أن أوضحنا مراراً... هي المصدر الاصلى الذى يعتمد عليه الباحث التاريخى أو المادة الخام التي يصوغ منها نسيجه، فالإستفادة منها يستلزم القدرة على قراءة الوثيقة، ثم التحقق من صحتها وذلك يتطلب معرفة اللغة التي كُتبت بها الوثيقة والخط الذي كُتبت به، والطريقة التي كانت متبعة في ذلك العصر للكتابة الرسمية، والاسلوب المستخدم في الكتابة والمصطلحات - إلى غير ذلك من الدراسات التي لا بد منها للتحقق من أن الوثيقة أصلية وسليمة ليست مزورة، وهكذا تتضح أهمية علم الوثائق وهو علم قائم على أسس وأصول، وترتبط بذلك دراسة الأختام التي كانت تختم بها الأوراق الرسمية وغير ذلك من الدراسات كدراسة الشفرة التي تصدر بها بعض المكاتب ومفتاحها وطريقة قرأتها. وقد تقدم هذا العلم أخيراً تقدماً كبيراً وتفرع وأصبح هناك متخصصون فيه ومدارس لتدريبه..

كذلك - كما أشرنا - فإن دراسة الخطوط المختلفة المستخدمة في عصر من العصور وتطورها ومميزاتها تفيد في الحكم على سلامة الوثيقة من عدمه وهذا بالطبع يهم الباحث التاريخى في المقام الأول.

(١) وجدت بفرنسا مدرسة خاصة لدراسة أصول وأسس الوثيق ويطلق عليها اسم (مدرسة الوثائق (Nicole Des Chartes) ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات كاملة هذا وقد أشار لبعض لأهمية ما أطلق عليه (علم الكشافات) أو (علم المراجع التاريخية) وقد أشار لذلك لانجلو (Langlois) في كتاب له عن «علم المراجع التاريخية»

"Manuel de Bibliographie Historique"

انظر انجلو وسينوبوس مرجع سابق ص ٢٣. وكذلك ص ٣٨

وأذكر على سبيل المثال أننى إطلعت فى دار الوثائق بالرباط بالمغرب على العديد من الوثائق العربية بالخط المغربى القديم - وهى وثائق لها أهميتها لأنها تكشف عن حقائق فريدة، وتحتاج الإستفادة منها لمعرفة هذا الخط وتفهمه. ويقال نفس الشيء عن المخطوطات العربية الضخمة التى تخص تاريخ البلاد العربية بشمال وغرب أفريقيا وتاريخ بلاد الأندلس طوال فترة الحكم العربى - التى تزخر بها (مكتبة الأسكوريال) فى مدريد، إسبانيا.

ويحتاج المؤرخ للامام باللغة التى كانت سائدة فى العصر الذى يدرس تاريخه أو الدولة التى ارتبطت بهذا التاريخ - فمثلاً الباحث فى تاريخ مصر فى العهد العثمانى عليه أن يلم باللغة التركية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ليستفيد من الوثائق الأصلية الهامة التى بدار الوثائق بالقلعة وأغلبها بالتركية والقليل منها ترجم إلى العربية فى أوقات معينة ولدراسات محددة^(١).

كذلك من يتعرض لتاريخ الإستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا أو شمالها أو للإستعمار البريطانى فى نيجريا مثلاً أو جنوب أفريقيا - لابد أن يعرف اللغة الفرنسية أو الانجليزية معرفة طيبة ليستفيد من الوثائق بالمكتبة الأهلية ببائيس أو التى صدرت عن فرنسا أو إنجلترا أو المحفوظة فى أرشيف وزارة الخارجية فى البلد المستعمر (كان يطلق على بعضها فيما قبل وزارة المستعمرات).

ولاشك فى أن الاعتماد على ما نُشر من مجموعات الوثائق أو المعاهدات والاتفاقيات لا يغنى بحال من الأحوال، ولا بد أن يطلع الباحث بنفسه على الوثائق ويختار منها هو ما يرى نشره أو استخدامه وما يلقى الضرر على موضوع بحثه وما يؤيد رأيه أو ينقض رأياً شائعاً إلى غير ذلك، فهذه هى الأضافة الحقيقية المطلوبة من الباحث.

(١) اللغات بطراً عليها تطور، والألفاظ قد يكون لها مدلولات تختلف فى العصور المختلفة فمثلاً اللغة اللاتينية واللغة الفرنسية المستعملتين فى العصور الوسطى تختلفان تماماً عن اللاتينى الكلاسيكى، والفرنسى الحديث - وسنشير لهذا بالتفصيل فيما بعد.

فإجادة اللغة التي كُتبت بها الوثائق الأصلية المتصلة بالبحث أمر جوهري، ولا يجدر بالباحث التاريخي أن يتصدى لموضوع يعلم أنه يجهل لغة مصادره الأصلية إلا إذا كان عازماً أكيداً على تعلم هذه اللغة والرجوع للوثائق الأصلية المكتوبة بها.

وقد طالب الفيلسوف الألماني شليجل (Schegel) دارسى التاريخ الألماني بأساس لغوي قوى يمكن الباحثين من البحث فى السجلات، وانتقد ظاهرة أن ما قام به الأجانب - كما ذكر - أكثر بكثير مما أنجزه الباحثون الألمان، وكان لمقاله هذا فضل كبير فى الحث على ما عُرف «بدراسة اللغويات التاريخية»^(١)

وفيما يتعلق بدراسة الوثائق الأصلية باللغة الأصلية لهذه الوثائق أشير إلى أن بعض الدول استنتت سنة حميدة بأن تلتزم كل فترة بنشر بعض الوثائق التى مرت عليها فترة زمنية تبیح نشرها دون المساس بمصلحة الدولة مثال ذلك الكتاب الأزرق البريطانى والأصفر الفرنسى.

هذا على أننا نُشير أيضاً إلى أن بعض المعاهدات والإتفاقات الدولية التى تنشر نصوصها فى حينها ظهر فيما بعد إن ما نُشر منها لايمثل إلا جانباً واحداً من الحقيقة، فهناك إتفاقات سرية ملحقة بالاتفاقات المعلنة وبعضها أكثر من البنود الأصلية أهمية - كذلك أشير إلى أهمية الإطلاع - إن أمكن - على محاضر جلسات المناقشات، بين الأطراف المختلفة مما يستلزم اطلاع الباحث بنفسه على ما دار فى هذه الجلسات فهو يكشف عن حقائق مُذهلة لايمكن الوصول إليها من مجرد الإطلاع على ما نُشر أو ترجم من النتائج النهائية للمناقشات - وكل هذا يتطلب معرفة الباحث باللغات الأصلية للدول الأطراف، فى الأحداث التاريخية.

(١) كاسيرر، ارنتست، مرجع سابق، ص ١٨.

وَمِنَ الْعَدِيدِ مِنَ الْعُلُومِ الْآخَرَى وَأَوْجِهَ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي قَدْ يَحْتَاجُهَا
الْبَاحِثُ التَّارِيخِي.

عَلَى أَنْ أَهْمِيَّةَ كُلِّ عِلْمٍ مِنْهَا - إِلَى جَانِبِ الثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ الْمَشْتَرِكَةِ تَخْتَلِفُ
حَسَبَ الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ لِلْبَاحِثِ وَتَخْصُصُهُ.

فَالْبَاحِثُ فِي تَارِيخِ مِصْرَ الْقَدِيمِ يَلْزِمُهُ الْإِلْمَامُ بِاللُّغَةِ الْهِيْرُوغْلِيْفِيَّةِ بَيْنَمَا
يَحْتَاجُ الْبَاحِثُ فِي فَتْرَةِ الْحُكْمِ الرَّوْمَانِيِّ لِمِصْرَ إِلَى الْإِلْمَامِ بِاللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ أَوْ
الْيُونَانِيَّةِ وَهَكَذَا. وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى أَنْ مِنْ يَتَعَرَّضُ لِفَتْرَةِ الْحُكْمِ الْعُثْمَانِيِّ يَلْزِمُهُ
مَعْرِفَةُ اللُّغَةِ التَّرْكِيَّةِ - بَيْنَمَا قَدْ نَكُونُ دِرَاسَةَ الْوُثَائِقِ مِثْلًا وَطَرِيقَةَ الْحُكْمِ
عَلَيْهَا وَالِاسْتِفَادَةَ مِنْهَا شَيْئًا عَامًّا مَشْتَرِكًا لِأَنَّ عَنَهُ لِلْغَالِبِيَّةِ مِنَ الْبَاحِثِينَ فِي
مَخْتَلَفِ عَصُورِ التَّارِيخِ بِإِعْتِبَارِهِ أَسَاسًا مِنْ أَسْسِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ السَّلِيمِ.
وَهَكَذَا يَسْتَطِيعُ الْبَاحِثُ - أَنْ يَحْدُدَ الْوَأْنَ الْمَعْرِفَةَ الْلازِمَةَ لَهُ - وَأَنْ يَحْدُدَ بَعْدَ ذَلِكَ
مَوْقِفَهُ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى الْبَحْثِ فِي هَذَا الْإِتْجَاهِ أَوْ الْإِحْجَامِ عَنِ هَذَا الْمِيدَانِ.

وَيُعْطَى د. أَسْدُ رَسْتَمٌ مِثْلًا لِمَنْ يَتَصَدَّى لِدِرَاسَةِ مَوْضُوعٍ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ
فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ - يَسُوقُهُ كَمِثْلٍ لِحُضُورَةِ الْإِلْمَامِ بِمَا
أُطْلِقَ عَلَيْهِ (الْعُلُومُ الْمَوْصَلَةُ) وَهِيَ تَسْمِيَّةٌ مَشْتَقَّةٌ مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ - فَيَذْكَرُ أَنَّ هَذَا
الْبَاحِثَ يَلْزِمُهُ عَلَى الْأَقْلَى أَنْ يَلْمَ بِاللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالتَّرْكِيَّةِ، وَالفَرَنْسِيَّةِ،
وَالْإِنْجَلِيزِيَّةِ، وَالْأَلْمَانِيَّةِ إِذْ أَنْ أَسْوَالَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ مِنَ التَّارِيخِ تَرِدُ فِي هَذِهِ
اللُّغَاتِ^(١).

هَكَذَا يَحْتَاجُ الْبَاحِثُ فِي التَّارِيخِ لِلْإِلْمَامِ بِالْوَأْنَ مُتَعَدِّدَةً مِنَ الْمَعْرِفَةِ لِيَقْرَمَ
بِعَمَلِهِ عَلَى خَيْرِ وَجْهِ.

هَذَا بِالِإِضَافَةِ إِلَى الْحَاجَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْخَطُوطِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَخْتَلِفَةِ.

(١) رَسْتَمٌ، أَشْدُ: مَرْجِعٌ سَابِقٌ ص ٦ وَمَا بَعْدَهَا.

الفصل الخامس

بعض الصفات الواجب

توفرها فى المؤرخ

(السلوك الخاص بالباحث)

مباحث هذا الفصل:

- التحلى بالجلد والصبر.
- الدقة والأمانة.
- الحيطة اللازمة للمؤرخ.
- عدم تكوين رأى مسبق (إرادة المعرفة)، أى الرغبة الحقيقية فى الوصول للمعرفة.
- ملكة الربط بين الأحداث المتناثرة.
- الإستعداد لتقبل آراء الغير.
- الحاسة الزمنية.
- التأمل الهادئ..
- الموضوعية (لا تتنافى مع قوة الشخصية والاتزان العلمى).
- القدرة على التعبير بأسلوب علمى.
- التواضع.



البحث التاريخى ليس بالأمر السهل اليسير، فهو يتطلب أن تتوفر فى المؤرخ شروط قد لا يستلزم توفرها فى غيره ممن يتعرضون لآلوان أخرى من الكتابات الأدبية مثلا أو البحوث فى مجالات أخرى.

فمن الصفات الأساسية التى يجب أن تتوفر فى المؤرخ - أو ما أطلق عليه المؤرخ الألماني تيودور مومسن (T. Momson) «بالسلوك الخاص بالباحث فى مجال التاريخ»^(١).

الجلد والصبر:

فالباحث فى ميدان التاريخ يحتاج للسعى وراء المعرفة مهما تكبد من جهد ووقت فهو يواصل البحث فى دور الوثائق، ويطلع على العشرات منها وقد لا يجد فيها ما يُضيف جديداً أو يخدم بحثه، ومع ذلك فيجب ألا ينتابه اليأس بل يتابع البحث طالما هو يسير فى الطريق السليم، ونفس الشيء قد يحدث فيما يتعلق بالعديد من المراجع التى يلزمه أن يرجع إليها لتناولها العصر الذى يبحث فيه أو لصلتها بالموضوع الذى يكتب عنه، وقد يطوى عشرات الصفحات فلا يكاد يجد جديداً يخدم موضوعه.

والباحث فى الوثائق الأصلية بأوضاعها الحالية ولغتها، وطريقة كتابتها إلخ.. يحتاج إلى صبر وأناة فى محاولة لحل غموضها أو معرفة مدلولها أو ظروف صدورها.

ومن يستعجل الوصول إلى المعلومات التى تخدم بحثه يُخطئ فى الحقيقة لأن هذا سيكون بلاشك، على حساب الدقة المطلوبة.

يُضاف إلى هذا أن الوثائق نفسها ليست غالباً تحت أيدي الباحثين فهى مبعثرة هنا وهناك فى دور المحفوظات، والباحث عليه أن يسعى إليها حيث هى،

(١) تيودور مومسن - مؤرخ المانى - اشرنا إليه أكثر من مرة، ومن أشهر كتبه «القانون الستورى الألماني» كتبه فى السنوات: ١٨٧١ / ١٨٧٥ - وله كتاب آخر عن «التاريخ الرومانى»

والإهمال منها شيئاً مهما كان بعيد المنال ومهما تطلب الوصول إليه من جهد وميال ووقت - فالمطلوب من الباحث أن يلم بكل ما هو متعلق ببحثه من وثائق أو كتابات غير منشورة أو منشورة.

ويشير أنجلو وسينوويس إلى ذلك بقولهما: «إن الفضيلة الأساسية في المؤرخ هي الصبر.. لا تشتغل بسرعة، وأعمل وكان في الإبطاء فائدة دائماً.. هذه نصائح سهل قولها، أما إتباعها فيحتاج إلى مزاج رصين - فالتناس العصبيون الشديدي الأفعال المتعجلون دائماً للانتهاء - يمكنهم أن يعملوا عملاً حسناً في مهن أخرى غير البحث التاريخي»^(١).

«إن الباحث في مجال التاريخ - كما يذكر يجب أن يطرد من ذهنه أن البراعة (Savior-iaire) يمكن أن تعوض عن المعرفة (Savoir) وأن العمل الرديء السهل بشيء من البراعة يمكن أن يحل محل العمل الجيد»^(٢)

ويذكر المؤرخ الألماني فون رانكه (Ranke L. Von) أنه يجب أن يكون شعار المؤرخ «اعمل - ولا تتكلم»^(٣) فوظيفة المؤرخ - في رأى هذا المؤرخ «هي بذل كل جهد سعياً وراء الحقيقة، ليس التذرع بالزخارف، الخطابية، فالمؤرخ عليه أن يدرك أنه مطالب بأن يستخرج الحقيقة من وسط الأحداث الغامضة». ويقول «يجب ألا ينفر المؤرخ من غموض العالم المتغير، بل عليه أن يتعلم كيف يعتاد الظلام، وأن يرى الواقع من خلال الأحداث الغامضة»^(٤).

كذلك يجب أن يتصف المؤرخ بالدقة الكاملة، والأمانة في عرض وجهات النظر المختلفة، وكما سنرى فيما بعد أنه مطالب بأن ينسب كل رأى لصاحبه ولصدره دون إلتواء أو محاراة إخفاء شيء من الحقيقة

(١) أنجلو وسينوويس مرجع سابق ص ٩٧

(٢) نفس المرجع ص ١٠٥

(٣) كاسيرر، أريست مرجع سابق ص ٢٩

(٤) نفس المرجع ص ١٠٥

وإذا اهتزت ثقتنا فى أبحاث فى التاريخ سره واحدة إهتزت الأرض من تحت اقدامه، وأصبح مُعرضاً للشك فى كل ما يقوله وما يورده من أفكار وآراء.

هناك مشكلة تثار دائماً.. هل يُقدّم المؤرخ النتائج القوسية، وما تطلبه منه من آراء معينة بعيدة عن الحقيقة إذا حدث تعارض بين الاثنين أم العكس؟

والواقع إننا نطلب من المؤرخ الحيدة الكاملة والذراهة التامة، فهو يورد الدعائق مستندة إلى مصادرها الأصلية وحين يتعرض للتحليل أو التعليق يجب أن يلتزم بالمنطق والأسلوب العلمى الذى يبىى النتائج على علل وأسباب سليمة بحيث لا تتعارض النتائج مع المقدمات

والمؤرخ يجب ألا يُكون رأياً مسبقاً فى الأحداث، ثم يحاول بعد ذلك أن يجمع الأدلة والبراهين على صحة هذا الرأى فلا شك فى أن هذا الإتجاه سيؤدى إلى الإنزلاق والخطأ، بعكس لو جمع المعلومات عن الحادث الذى يتعرض له من مصادرها الأصلية، واستعرض مختلف الآراء التى كُتبت عن هذا الحادث محاولاً تحليلها والوصول فى ضوء كل ذلك إلى الرأى المرجح الذى يرتاح هو إليه، ويعتقد أنه - فى ضوء كل المعلومات المتاحة له - هو الرأى السليم.

ويعبر المؤرخ الألمانى فون رانكى (Ranke) عن ذلك بقوله «إن عدم محاولة المؤرخ السعى وراء الحقيقة المجردة خطيئة فادحة، إنه ضعف فى إرادة المعرفة» - وأشار إلى وجوب الفصل بين الأمر الشخصى والواقعى، ووجوب الإلتزام بالموضوعية التاريخية. كما عبّر عن ذلك أيضاً الفيلسوف الألمانى جوتيه (J.W. Von Goethe) بقوله «إن المؤرخ يجب أن يتصف أولاً وأخيراً بحد الحقيقة»^(١).

نكرر مهما يكن الأمر فإبداً فى الأمر الذى ننتقد من بين المؤرخ الضمانيق

الكامل فى إبداء الرأى والإلتزام بالحقيقة المجردة - لا نستطيع أن نجرده من العوامل القومية.. أو المصالح الوطنية التى قد تؤثر عن قصد أو غير قصد - فى كتاباته وأرائه التى ينتهى إليها.

نضرب مثلاً بكتابات وأراء بعض الكتاب عن دور بلادهم فى أفريقيا وغيرها من المناطق التى كانت ميداناً لإستعمارهم - فمثلاً سيسل جون رودس (Cecil John Rhodes) المستعمر البريطانى - الذى أضاف بجهوده ووسائله للإمبراطورية البريطانية أجزاء هامة فى جنوب أفريقيا ووسطها - نجده يبرر هذا العمل - كما برره غيره من دعاة الإستعمار بأن الجنس الانجلو سكسونى عليه رسالة وواجب تجاه هذه الشعوب لنشر الحضارة فيها.

وبالغ هؤلاء فى دور نولهم الحضارى وتجاهلوا الحضارات التى كانت للشعوب الإفريقية قبل مجئ الاستعمار، وصوروا عمليات الإستغلال الهدام التى قامت بها الدول الاستعمارية لإستغلال الثروات الإفريقية دون محاولة للنهوض بالأفارقة أنفسهم - أصحاب البلاد الأصليين - على أنها عمليات إقتصادية حضارية بناءة، وصوروا ما قامت به الشركات والحكومات الإستعمارية من مد خطوط السكك الحديدية مثلاً من مناطق الإنتاج الصناعى إلى الموانى ومناطق التصدير دون مراعاة للكثافة السكانية ومصالح السكان على أنها أعمال عمرانية لا مثيل لها، ولم يُشيروا لما أصاب الأفارقة وثقافتهم ومدنيتهم ونفسياتهم وثروات بلادهم من أضرار وتناشوا عامل الزمن وغيره فأبرزوا النتائج العمرانية وما تم فى مجال الثقافة والطب والعلاج.. كأنها أعمال بطولية متناسين السنوات الطويلة التى إنقضت وما كان يجب أن يتحقق فيها من تقدم حقيقى وتعمير.

ولذا فالباحث مطالب دائماً باليقظة حين يرجع لكتابات هؤلاء الكتاب، ويجب أن يكون ملماً بحقيقة الكاتب، الذى يرجع له، وثقافته وميوله وإتجاهاته الخ...

والاعتماد على الوثائق ومحاولة تحليلها يجنب الباحث من الوقوع فى كثير من الأخطاء، ولذا يجب أن تكون لدى الباحث ملكة النقد والتحليل، أو ما يمكن أن نعبر عنه (بفن نقد وتحليل المصادر) أو كما قال الفيلسوف الفرنسى تين هردير (Herder) «القدرة على التفسير والوصف»^(١).

ويُعبّر البعض عن هذا «بأنه مطالب بأن يقرأ ما بين السطور» والمقصود من ذلك هو أن الباحث لا يجب أن يقرأ الوثيقة أو المادة العلمية قراءة سريعة عابرة كمن يقرأ صحيفة يومية لمجرد معرفة الأخبار العامة فلانكاد تستوقفه سوى بعض العناوين البارزة فى الصحيفة اليومية - لكن كل لفظ أو عبارة يقرأها تستوقفه للتساؤل والبحث عن مدلولها، والمقصود منها سواء ذكر صراحة أو لم يذكر والدوافع من وراءها... هذا على أن يضع فى الاعتبار أن للدبلوماسيين ورجال السياسة والكتابات الرسمية من العبارات ما قد لا يكون مدلولها الحقيقى واضحاً فى ذهن القارئ العادى^(٢).

ويذهب المؤرخ هردير (Herder) إلى «أن المؤرخ هو الذى يرى فى التاريخ ليس مجرد المجرى الخارجى للأحداث، بل يسعى بدلاً من ذلك لرؤية روحه، وهو وحده الذى يستطيع أن يكتشف الروح الكامنة وراء احجبتها واقنعتها»^(٣).

«إن المؤرخ - كما يقول - بخلاف المنطقى فمهمته لا تقتصر على المظاهر فحسب، بل إنه يعلو عليها»^(٤).

كذلك يجب أن تكون لدى المؤرخ ملكة الربط بين الأحداث المتعددة،

(١) كاسيرر، أرنست: مرجع سابق ص ٥٣.

(٢) مثال ذلك ما اثاره تعبير (الجملاء عن ارض عربية أحتلت بالقوة) فى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ المتعلق بوقف القتال بين الدول العربية واسرائيل فى عام ١٩٦٧ وما قيل عن ان القصد ليس (الجملاء عن الاراضى العربية كلها التى أحتلت بالقوة).

(٣) كاسيرر، أرنست: مرجع سابق ص ٩

ملاحظة: هردير مؤرخ المانى من مؤرخى القرن الثامن عشر

(٤) كاسيرر، أرنست: مرجع سابق ص ١٣٢ - ١٣٣

وقد عبّر عن ذلك الفيلسوف الألماني فون همبولت (Von Humboldt) بقوله: إن مهمة المؤرخ تحتاج إلى إدراك للواقع بالإضافة إلى الخيال الخلاق الذى يستطيع وحده ربط الوقائع المنعزلة والمنتشرة فى نطاق واسع بعضها ببعض فى وحدة حقيقية^(١).

إن التاريخ لا يقم - كما يبدو لأول وهلة مشهداً أو مشاهد لأحداث متنافرة بل إنه رواية مترابطة الفصول، ويكمن السر فى قوتها فى هذا الترابط المتين بين فصولها - فكل ظاهرة لعلها إنعكاس لأخرى وهكذا.

هذا ويجب أن يكون الباحث فى نفس الوقت مستعداً لتقبل آراء الغير ووجهة نظرهم دون أن يضيق بها بل وأن يكون مستعداً للأخذ بوجهة النظر المغايرة لما كان يعتقد هـو - إذا وجد من القرائن ما يؤيد وجهة النظر المعارضة لرايه وما يرجع صحتها.

وهنا ملكة هامة يجب أن تتوفر لدى المؤرخ وهى ترتبط (بالعامل الزمنى) أو الحاسة الزمنية فهو يتعرض لأحداث حدثت فى أزمنة سابقة مغايرة لزمته من حيث الظروف الاجتماعية، والأفكار السياسية السائدة فى المجتمع والمعتقدات والمبادئ المتعارف، عليها فى هذه الأزمنة الخ...

وهو لا يجب أن يقيس الأحداث ويربطها بأفكار وعلل ومقاييس أستخدمت بعد. أو بمعنى أصح أن المؤرخ يجب أن يحذر تفسير الأحداث الماضية وتعليلها بالأسباب والعلل التى لم تكن موجودة فى زمنها لكنها قد تكون بارزة وواضحة اليوم - فهو لا يجب أن يجرى فى عقول الناس فى الماضى ما يجرى فى عقولنا اليوم دون مراعاة لفارق الزمن.

مثل ذلك ما يردده العديد من الكتاب من أن الدافع التى دفعت محمد على للتفكير فى مد إدارته للسودان وإرسال حملاته لبسط سلطانه على هذه البلاد -

رغبته في السيطرة على منابع النيل الإستوائية ليكون النهر من منابعه حتى مصباته تحت سيطرته.

وقد تكون فكرة التحكم في هذه المذابح وإقامة المشاريع عليها مما بُحث فيما بعد - لكن، لا يُقبل هذا الأمر في عهد محمد علي لسبب بسيط هو أن منابع النيل الإستوائية لم تكن قد كُشفت بعد ولم يتم كشفها إلا في عصر الخديوي إسماعيل.

وإن كان الرحالة وادنجتون (Weddington) مثلاً قد أشار إلى طموح محمد علي واطماعه في أن يكون سيداً على سكان وادي النيل ومن يشربون من مائه من الحبشة حتى البحر المتوسط^(١).

إلا أن مسألة التحكم في مشروعات الري على النيل التي رددتها المراجع المتعددة لم تخطر أبداً على عقل محمد علي أو عقول معاصريه^(٢) ومثال ذلك أيضاً ما تردده الكتب عن «المثل الأعلى للفضيلة والحرية الذي يُنسب للرومان» فالحقيقة إنه كما ذكر فستل دي كولانج (Fustel de Coulanges) في كتابه «المدنية القديمة» الذي درس فيه العبارات والقوانين والنظم عند اليونان والرومان «إن القدماء لم يعرفوا الحرية في حياتهم الخاصة، كما أنهم لم يعرفوا الحرية في التعليم، أو الخدمة الدينية، وكانت شخصية الفرد ذات قيمة ضئيلة إذا قورنت بالسلطة الصارمة التي تكاد تكون مقدسة والتي تمتعت بها ما نسميه (بالدولة) أو الوطن، وكان المعتقد هو أن الواجب يقضى بأنه علي كل من الأخلاق والعدالة، والحقوق أن تفسح الطريق لصالح الوطن»^(٣).

من هذا يتضح أن من أغرب الأخطاء الظن بأن الإنسان قد تمتع بحرية

(١) Weddington: Journal of a visit to Some Parts of Ethiopia p. 91.

(٢) لمن يريد تفاصيل هذه النقطة يرجع إلى:

الجمال، شوقي: تاريخ السودان وادي النيل ج ٢ ص ٢٣

(٣) كاسير، أرنست. مرجع سابق ص ٦٤

فى المجتمعات القديمة - كما نفهمها نحن اليوم - فهو لم يحصل حتى على فكرتها.

إذاً على المؤرخ أن يحاول بعقله وفكره أن يعيش العصر الذى يتصدى للكتابة عنه، ويحاول أن يُعايش الناس فى هذا التصير أفكارهم وتقاليدهم وعاداتهم، وهذا أمر ليس باليسير فهو يتطلب دراسة عميقة للأحوال السياسية والإجتماعية والاقتصادية وغيرها للعصر موضوع الإهتمام.

لكن مع ذلك فكما يذكر رانكى (I. Ranke) يجب أن يرى الأشياء من وجهة نظر أعلى من تلك التى يراها بها أولئك الذين عاشوا وسط الأحداث فالمؤرخ - كما يقول - يسعى إلى تحويل التاريخ العاصف كله إلى هدوء التأمل الخالص - فصفا التأمل الهادئ هى من أهم صفات المؤرخ^(١)

وقد عبر عن نفس الفكرة الفيلسوف الألمانى بوركار (J. Burchardi) فى كتابه «تأملات فى تاريخ العالم» فنذكر «أن التأمل سمة من أهم سمات المؤرخ»^(٢)

كذلك رغم الموضوعية التامة اللازم توفرها فى المؤرخ - فإن هذا لايعنى بحال ما محو ذاتيته. فالتشخصية التاريخية لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق الشخصية الذاتية. ويستحيل هذا بغير تعاطف وثيق. إن الباحث الناجح هو الذى يتصف بالإتزان فلا تطفى كفة العاطفة عنده على كفة الموضوعية والحيدة، ولا تطفى تلك شخصية الباحث وأدميته بما فيها من عواطف واحاسيس ومشاعر.

ومن ميزات الباحث فى التاريخ التواضع، فلا يحرص أبداً على أن يفضح علناً أقل هينات تصدر من الغير، وهو لا يستخدم الفاظاً ولهجة فظة

(١) كاسيرو، أريستو. مرجع سابق ص ٦٤

(٢) نفس المرجع ص ٨٨

غليظة، فى الوقت الذى يُوجد فيه القليل الذى يقوم به هو - وقد ذكر انجلو وسينوبس «إن العالم دى كانج كان يقول عن أعماله بكل تواضع - تكفى العين والأصابع لعمل مثلها وأكثر.. وإننى إذا كنت أدرس وأبحث فما نلك لإيلام الآخرين»^(١).

والمؤرخ كغيره من المتصدرين للبحث العلمى يجب أن يتصف بالقدرة على تنظيم المعلومات وتصنيفها والاستفادة منها فى موضعها المناسب. وقد يكتسب هذا بالمران والتدريب - لكن يحتاج الأمر أيضا إلى عقل راجح وذكاء وقدرة على إدراك التسلسل بين الأحداث، وعلى المقارنة بينها والربط بحيث تكون سلسلة متصلة تؤدى الحادثة إلى أخرى.

ويعاب على كثير من الكتابات التاريخية أنها تفتقر لهذا التسلسل الزمنى فيشويها الاضطراب بحيث لا يستطيع القارئ أن يتتبع تسلسل وتتابع الأحداث تاريخياً، وأن يدرك مدى ارتباطها بعضها ببعض الآخر.

كذلك فإن المؤرخ يجب أن يتميز فى كتاباته وطريقة عرضه للأفكار بأسلوب علمى سهل، وبعبارات واضحة - فيجمع بين سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب، ووضوح الفكرة، وستعرض لهذه النقطة بالتفصيل فيما بعد عند الحديث عن كتابة البحث وما يراعى فى ذلك

هذه بعض الصفات التى يلزم أن يتصف بها المؤرخ - نذكرها على سبيل المثال لا الحصر.

وأشير فى ختام هذا الفصل إلى الصفات التى ذكر فرنسيس بيكون (F. Bacon) أحد مؤسسى العلم الحديث، إنه يجب توفرها فى السائح فقال «عقل له من سرعة المبادرة والقدرة على الشمول والإحاطة ما يكفيه للقبض على وجوه الشبه بين الأشياء، فى الوقت ذاته له من الرسوخ ما يكفيه لتعيين وجوه

(١) انجلو وسينوبس. مرجع سابق ص ١٠٤

الإختلاف الدقيقة والتمييز بينها.. عقل وهبته الطبيعة الرغبة فى البحث، والصبر على الشك، والتوق إلى التأمل، والتبصر قبل التأكيد، والإستعداد لإعادة النظر، والحذر الشديد فى التصنيف والترتيب.. عقل لا يأخذ بما هو جديد ولا يعشق ما هو قديم، ويمقت كل أنواع النفاق»^(١).

(١) مالك، شارل وأخرون: مرجع سابق ص. ٦٢، ٧ نقلا عن.

McClure, Mathew Thompson: Bacon Selections (London, 1928), pp. 9-10.